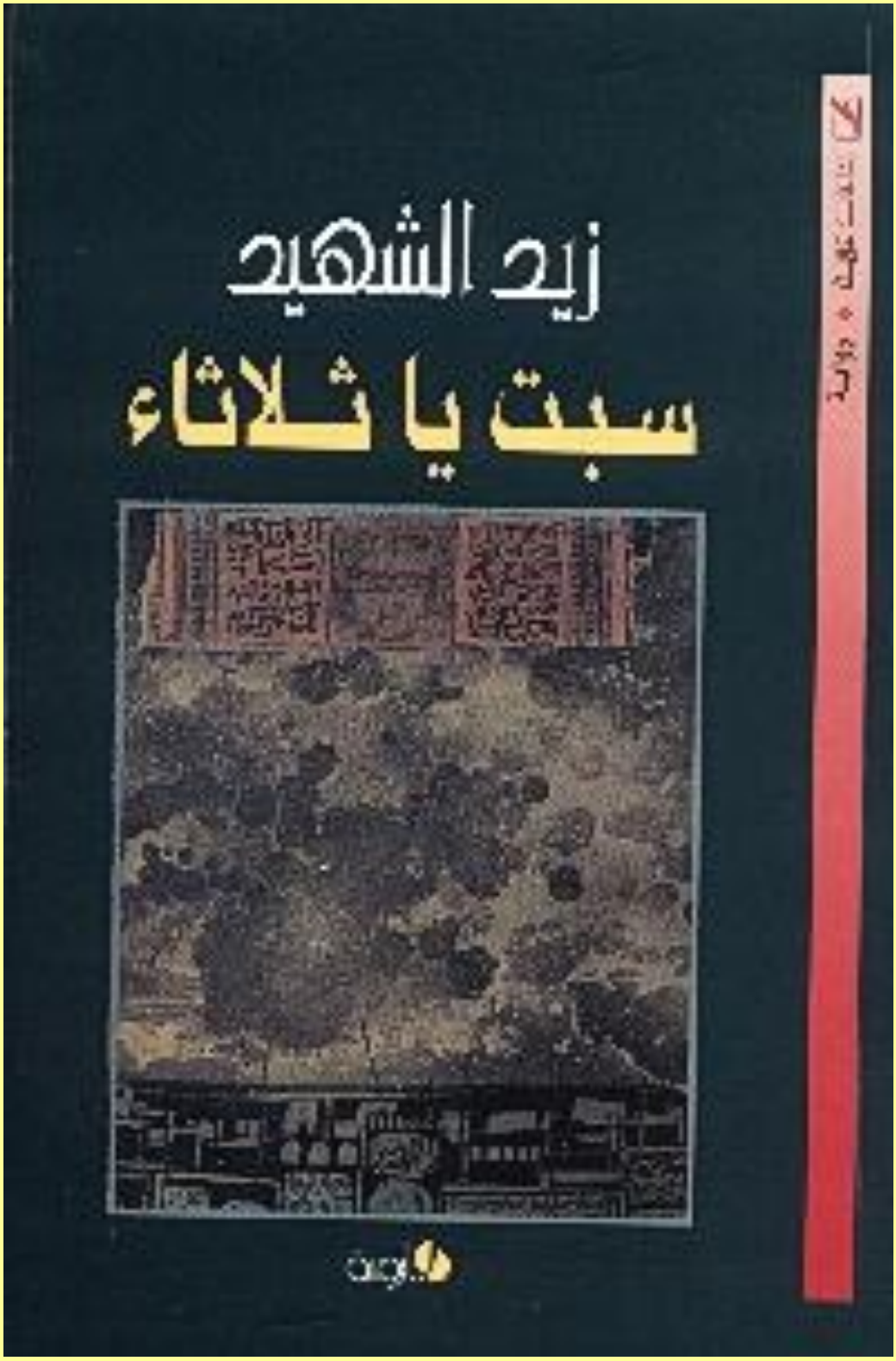
زيد الشهيد
سبت يا ثلاثاء
رواية

زيد الشهيد

سبت يا ثلاثاء

رواية

مسارات التركيب اللغوي
في(سبت يا ثلاثاء) لزيد الشهيد (*)

د. فاضل التميمي
ناقد وأكاديمي من العراق

تنهض رواية الكاتب العراقي(زيد الشهيد){سبت يا ثلاثاء} –الصادرة عن دار أزمنة عمان ٢٠٠٦ –، على متن سردي ممثل بمجموعة من التراكيب اللغوية التي تؤلف سياقات الجمل التي تحيل عادة على معنى ما...، وهي في الرواية تنفتح بأفق تراكمي على لغة مرمّزة تنوء بحمل مجازي شفيف، ومغاير... ولكنها في الوقت نفسه تتيح لمن يرغب في قراءتها مزيدا من التأمل، والحفر في مساراتها، ومساربها الدلالية، ولكثرة ما فيها من جمل مجازية، وتشبيهية، وكنائية، وطباق، وتصويت، وتوضيح، ووقفات فاصلة، وإحالات تاريخية، وأسطورية، وتناصية فقد شكّلت مع بعضها مستويات لغوية متداخلة حتى أن متلقيها عاجز تماما عن تلخيص ثيمتها ما أن ينتهي من قراءتها بمعنى أنها عصية على الاختزال، والتلخيص، وليس في هذا التوصيف قدح في الرواية، وإنما هو دليل واضح على قيام لغتها على تركيبية فارق فيها (الكاتب):(المؤلف) الأساليب التقليدية في السرد من وصف، وحوار، وانتقال، وتقنيات استرجاع، واستباق، وغيرها... معتمدا على لغة مستعارة من فضاء الذهن، وتحولات الذاكرة، فهي ليست رواية تفاصيل، وتزاحم أمكنة، وتلاعب أزمنة تطمئن إلى ما هو سائد ومعروف، بل هي رواية حالات مركبة، واستنطاقات، وتلقي، وقد يخطئ قارئها حين يعدّها رواية سياسية بالمعنى التقليدي للمصطلح؛ لان القراءة الدقيقة لمتنها، وتأويلاتها تحيل على(حالاتها) التي تستقطب حياة بأكملها تمزج ما هو سياسي بما هو ثقافي، ونفسي، وأخلاقي في إطار صفحات ليست بالكثيرة.

قلت إن لغة الرواية تنفتح على ما هو مجازي، وتشبيهي فالمجازي يديم الصلة مع الشعر، ويفتح قناة للتامل مع الذات، ومخلوقات الرواية وفضائها، حيث الاستعارة بظلالها المشعة تعمل على

صياغة(ادعاءات) ذهنية يقبل بتشابكاتها العقل المتلقي بما تنطوي على استعادات نصية تشتغل في تركيبتها النصية صور المبدع، والتقاطاته المتناثرة على تخوم الذاكرة .

إن عبارات المؤلف في محنته الروائية القابضة على شكل الاستعارة ومخرجاتها في:((سكاكين الألم باتفاق حميم مع خناجر الصمت تعلنان شعوائية حرب لا هوادة لغدر لحظتها زحفا)) ص١٣، و((تنتفض ضحكات القدّاح تمثيلا)) ص١٥، و((فتصرخ بفم الفقد: يا جسرُ! أين العابرون؟!)) ص١٧، و((الصباح يفتح أبوابه، صخب العصافير يمحو نداءات تلميذات المدرسة)) ص١٩، و((طرف العصى يلسع ظهر عريان المستدير للهرب من الفارّين)) ص٥٣، و((ترسم قوامها على بهاء المرآة، يضحك الشعر ناثرا قهقهاته على الكتفين، والثوب... يثير متعة النظر)) ص٤٥، تمنح اللغة فيضا شعريا يضاف إلى طبيعتها المتحركة، وتجعل المتلقي محكوما بأطر المشاركة في إنتاج النص وتأويله.

فاللغة المجازية تتجه نحو الشعر المحض لتفارق فضاءات النثر البارد، فعباراته:((لنهر الصِّبا أريج فر منها وابتعد)) ص١٤، و((نجاة تطلي كفيها بحناء الفراغ، وتتعطّر بغبار الحيطان)) ص١٥، و((تمسك السكينة وتقطّع الروح كوارث وصدمات/ هواجس وتوجسات/ كوابيس وضنونا/ لوعة واحتراقات/ هلعا وجزعا/ لهبا وشظايا)) ص٤٠، و((فاطمة عملت على تبديد بذرة اللهفة في سيح الهجران)) ص٤٢، و((يعافها الشرود إذ يصرح لها الألم)) ص٨٠، و((تسترخي المجسّات فيستحيل ضوء الشمعة كرنفالا دبيبيا ونشوة مائية، رحيلا إلى جزر معلقة بين سماوات الحلم، وارضين اليقظة)) ص٨٧، ليست أقوالا شعرية، وإنما هي استعارات شعرية محضة استعادها الكاتب من مكامن نفسه الفياضة بالتخيل، والبوح وادخلها قانعا، لا مرغما في نسيج الرواية ورؤاها... أ كان المؤلف يغامر بعمله هذا؟.

يخيل للقارئ أنه كان يحاول تشكيل عالمه بلغة غير عابثة يؤدي الإيجاز فيها أثرا واضحا في تقديم المعنى من دون ترادفات تذكر، أما قراءاته، واستنطاقه للّسان الآخر(الانكليزي) فزوده بمهارات أخرى عملت على تقديم لغته تقديما استثنائيا نهج فيه برؤى مجازية حفرت في ذاكرته عمدا حتى يمكن لقارئه أن يتخيل أن الرواية بامتدادها المنساب من دون نتوءات، وترقيمات، وتقاطعات بنية أدبية مغلفة باطار مجازي مشاكس.

أما التشبيهي فمهمته الموازنة بين(الحالات) لغرض إيجاد صلة حية بين طرفي التشبيه، وتقديم طرف على آخر لغرض التوضيح، وبيان الحال، أو مقداره، أو الإحالة بالدلالة التشبيهية على أصولها،ومقاصدها القابعة في أعماق النفس، فعباراته ((ترفع فاطمة عينيها لتلتقيا بوجه نجاة تراه مومياء مهملة)) ص٣٦، و((أفواههم ممرات مفتوحة لولوج الهواء تيارات)) ص٣٧، و((الشعر جديلة تنساب كأفعى على لوح الظهر)) ص٧٨، و((الليل حاضنة الهواجس والهموم واستعادات صور)) ص٨٠، و((الرعب يتمثل

غيلان هائلة هدّارة)) ص٩٢، لا تخلو هي الأخرى من شعرية تشبيهية ، ولكنها في الوقت نفسه تنسجم وطبيعة اللغة في الرواية .

وتحلق اللغة الكنائية في فضاء الرواية لتمنح السرد لوازم المعاني الثوان بعيدا عن المباشرة والتوضيح، مضيفة شعرية أخرى إلى لغة السرد فعبارته((تهالك كرة البرتقال مسحوبة بأصابع الرماد المنهمر من أكمام الغمامات)) ص١١، لا بد أن تحيل على مشهد سردي تتثاءب فيه الشمس كناية عن غيابها... لقد ركبت اللغة المسار الكنائي لغرض تقديم معنيين يهم الروائي أن نلتقط الأبعد منهما ، أما قوله((الإذاعات استحالت أفواها تخلّت عن شفاهها فأضحت لا تعرف الانطباق)) ص٧٥ ، فكناية طويلة عن صناعة الكلام الموجه الذي أجادته الإذاعات تساوقا مع آلة الحرب، وقوله((والبالون المنتفخ أسفل النهدين يمثل تشويها لا بد له من الانتهاء)) ص٨٠، فهو كناية أخرى تسربت دلالاتها حتى منتهى الرواية، أراد المؤلف من خلالها الإشارة الدائمة إلى إشكالية كبرى واجهت الحياة في مدينة(السماوة) مثلت في رأيه سرطانا دعا صراحة للتخلص منه .

حتى(طباقات) الرواية لا تخلو من شعرية انمازت بها اللغة الساردة، فحليمة التي((تتنبأ بالفرح، فتفاجأ بالأحزان)) ص٦٩، تعيش وضعا متضادا تتمثله اللغة وتقذف به صورة مربكة تستلهم المأساة بوساطة تقديم الصورة، ونقيضها... ولك أن تسمع ترنيمة الخراب التي أطلقتها(مناهي) لكي تكشف عن شعريتها الطباقية وهي تنوء بحملها المأساوي الكبير قائمة على أساس((معادلة أزلية: كوميدي/ تراجيدي.. ضحك/ مأساة تجاوزا لبرزخ الحياد)) ص٨٦، فضلا عن(نجاة) التي في محنتها اليومية لم تستطع اللغة إلا أن تقدمها بشاعرية حزينة تلونها دلالة الطباق((صاحت بهم: سأصعد إليكم.. لماذا لا تنزلوا إليّ؟!، فسمعتهم يهمهمون: سننزل إليكِ.. لماذا لا تصعدي إلينا)) ص٨٩... فالمتنافرات تجتمع في السياق النثري لتعلن عن تشكلها النفسي الناهض من بئر المأساة بسخرية مركبة.

وتأخذ لغة الرواية في مسارها السردي المنفتح على أفق التجربة الذاتية للمؤلف طابعا شعريا آخر حين تتلون سياقاتها بظواهر صوتية تتمثل في تقطيع الكلمات، ومد الحروف تبعا للمتغيرات النفسية التي تتحكم في المواقف، فهو يعمد إلى تقطيع الكلمة الواحدة لغرض مد أصواتها لكي تأخذ شكلا صوتيا طويلا، فكلمة(مجنونة) تصبح في السياق((مجـ ... نو...نة.. آ، ياجسر)) ص ١٧، فالتقطيع في الكلمة السابقة مدّ الصوت، وقرنه بالألف الممدود، علامة التأوه ربما للمطابقة بين نوع الصوت، وشكل الكلمة، و (هاكنّ) في جملته ((هاكن يدي لنعود... هاكن جوارحي.. آ.. لا .. لا..!)) ص٧٩ تصبح((ها.. كن..! ها كنننننننن))، فالمد هنا يعطي فكرة عن انقطاع الصوت، وتدفقه، ومده في متن الرواية إشارة إلى اضطراب الحالة النفسية للمصوت، وانعكاسها على عملية إنتاج الكلام، أما كلمة(إنهاك) التي تصبح((إن... هاك))

ص٩٢، فالتقطيع فيها عمل على تغيير دلالة الكلمة، وتأويلها، وكذلك الفعل(تعلو) حيث يصبح((تعلو.. تعـ .. لو)) ص٩٢،فمقاطع الفعل مقسمة على ثلاثة أصوات متباعدة... فضلا عن كلمة(صبرنا) التي تهيمن على ثيمة الرواية فتمتد صوتيا بموازاة حالة الصبر التي قصدها السارد((وصَـ .. بر .. نا)) ص٩٤.

ويجسد السارد قسما من الأصوات عن طريق مدها لا سيما الصوت الإنساني الحامل لفعل الأنين، والألم تقريبا للصوت الحيواني المعروف ((فيستقبل النائمون بوادر عواء يرتفع... يعلو شاهقا: عووووووو.. عووووووو))١٧، أما صوت التافف الذي يطلقه(أبو فاطمة) لحظة دخول البيت علامة من علامات الضجر فيصبح((إفففففف!)) ص٤١.

ويعمل الخوف على اختزال الكلمة بحرف واحد، أو مد الحرف إلى تصويت متصل((لـ .. لـ .. لـ ..! لا تخافي أنا (عريان).. من أنت؟ يرد الفم الحافظ للسان أعلن نفسه خشبة وانتهى إلى لا جواب..." أنا عريان لماذا أنت خائفة؟ الست نجاة؟... يي.. يي.. يي.. يي)) ص٥٠، الحوار هنا اشتمل على مد صوتي بين المتحاورين كان الخوف سببا في تشكيله الصوتي لا محال.

ويمتد حرف المد(آ) ليكون مرادفا لكلمة (نعم) ص٢٥، أو ليكون صيحة عظيمة يطلقها فم الأم بمعنى(آه) الم بطنها يصرخ: اصرخي، فتستجيب بقبضة اليد على الحائط، يغضب الألم.. يغضب.. يغضب مجسّات لم يمسسها بعد فينشق الشدقان عن أوتار تتمطى وتنشد بصيحة آآآآآآ.. ليتحول الصوت إلى فم الوليد آآآآآ ينظر: ص٢٧ في إشارة إلى انتقال الصوت من جيل إلى آخر، ويتحول هذا الحرف المدي إلى حرف تأوه(آه) على لسان بطن نجاة((آآآآآآآآه وآه تتلو آه، وآه تعلو على آه، آهات أدت إلى جفول القدم اليسرى، وتشنج الفخذ)) ص٢٩، ويحلو للسارد أن يرمز للألم المكتوم بالصوت((مممممممم. كثير/ وفير)) ص٢٩، كناية عن توافر الأنين والألم، ويكرر التصويت نفسه مع(أم نعمان) التي تنتحب بعد حلول كارثة ثلاثاء الجسر: جسر السماوة حيث((تنتحب ماسورة بمرارة تنتهي باصطكاك الفكين مممممم مستمر حتى جفاف الدم)) ص٣٠... فاللغة تتطابق وظيفيا وأحوال المتكلمين تبعا لتحول مسارات الأحزان فيهم.

وتتفاعل اللغة في(سبت يا ثلاثاء) تناصيا مع خزين المؤلف، وذاكرته، ولا سيّما خزينه التاريخي القديم الفاعل في ثقافته، فمدينة (أوروك) تظهر في تركيبة اللغة، فضلا عن(سومر) و(اينانا) ينظر: ص٢٤، ٣٠، ٣٧...الظهور هنا يمثل استعادة نصية تكشف عن فاعلية النسق التاريخي الثقافي الذي ملك سلطة الظهور، والتجدد في سرد واحد من العراقيين المعاصرين، الذي يحمل (اسم) زيد الشهيد... وإلا بماذا نفسر ولعه في تسريب لغة (الأختام) إلى متن الرواية؟ الأنّ الأختام(هويات) لا يمكن القفز على دلالاتها؟ أم لأنها جاءت في عصرنا الراهن بـ(لعنات) حيّرت العقول وذهبت بالبصر؟.

لم يستطع المؤلف التملص من الماضي، وربما دفعه سوء الحاضر إلى التعالق به، ولاسيما مع متونه المشعة فكرا، وتأويلا، فحالة الصبر التي يعيشها استدعت صورة(جلجامش) الصابر وهو يرى صديقه (انكيدو) مسربلا بالموت والديدان. ينظر: ص٣٩

إن لغة الرواية المنفتحة على الماضي سجّلت استعادات أخرى بدت فيها وكأنها تمتح من معين أسطوري احكم المؤلف التمثل فيه، وأجاد الصياغة((لا ادري لماذا وأنا اكتب هذه الكلمات تستحضرني حكاية قرأت عنها زمن الصبا، أو ربما سمعتها من جدتي المولعة بأنشطة السعالي، ورهبة الغيلان عن تلك الحورية الجالسة على درابزين جسر المدينة، أسفلها يجيش النهر هادرا، منهمكة بتسريح شعرها المثير، وويل لمن يدنو منها، أو يحاذيها بسيره إذ سيباغت بسيل الشعر يحيطه، ويلفه، وبحركة لولبية، أو كالدوّامة تلقي به قشة إلى النهر)) ص٧٨.

ثم يمارس المؤلف نوعا من الإيهام، إيهام القارئ: الناقد أن((لا تأثير للحكاية على الكلام)) ص٧٨، بمعنى لا اثر لحكاية(الحورية) في ما هو مكتوب، في نص الرواية، وانه استعاد الحكاية السابقة((فقط كتذكّر)) ص٧٨، لقد مارس(محو) النص الأول، نص الحكاية لغرض تذكّره، ومن ثمّ نسيانه، والتناص معه في بنية اطراسية تربطه بنصوص سابقة.

ومما هو جدير بالملاحظة أن المؤلف وهو في قمة تفاعله المجازي في ضمن لغة الرواية تتزاحم الأفكار، والرؤى في مخيلته فيضيق سياقها عن حملها فتخرج وكأنها صُبّت في غير قالبها، وللقارئ أن يدقق النظر في أقواله:((وهي الباب كاتمة النوايا، والأسرار ، وفاضحة حميد المتسلل بطريقة الهرب الانخطافي آن أن يتركها مواربة نسيانا، أو تخوفا من أن تصرخ به حين الانغلاق حيث بهيجة تتسائل...)) ص٥٣، و((تحصي عدد الخيبات في مسلسل الأسى من الغياب ألتتابعي حيث رحيل الألم ابتداء وهي الذاهلة لا تفقه سقوط الرغبات خازوقيا فوق جبهة التحقق)) ص٧٨، و((يلاحقها مشهد شق الباب ما قبل هجوم الأحزان بباشق الحيرة ساعة جاءتها الأسبوع الفائت عصرا بتوقيت الرغبة في التذكر والشعور بضرورة الزيارة تعويضا عن ندم الانقطاع لأسابيع)) ص٦١، حيث سيكتشف- القارئ- أن اللغة فيهما تنحو منحى ذهنيا تراكميا يصعب إدراكه، يذكّر بالنصوص المترجمة على عجل، فمثل هذه اللغة لا تسمح أبدا بتأويلات نصية تتيح للمتلقي المساهمة الجادة في إعادة إنتاج الخطاب وتحليله، وإنما تمنحه قدرا من لعبة مواربة لا همّ لها سوى اللعب بالألفاظ.

الرواية نص بلا بطل محدد؛ لان البطل فيها هو الرواية كلها بشحناتها الدافقة ألما ممضا، وحزنا معتقا على ارض صلبة محروثة بالنار، والألم... وربما كان البطل الوحيد فيها هو السارد نفسه والرواية نفسها((لم اهدأ أنا الذي اكتب رواية تدور أحداثها في مدى زمني لا يتعدى الساعات، والصراصر استمرت

تمارس فعل الصيرورة عبر الصرير التواصلي بينما شواخص أبي ابريص تتوزع أماكن تسهل عليه مهمة الالتهام والتغذي بشهية زاخرة)) ص٨٨، وكأن اللغة تحتج انتصارا لاحتجاجات المؤلف: السارد التي ظلت على مسار السرد تتخذ طابعا استفزازيا يحطم المألوف، وينمو باتجاه الإيقاع بالقارئ الذي لم يكن بعيدا عن تصور الكاتب أبدا حيث أشركه في تلقي عمله، واستنطاق محموله الفكري، والجمالي ونقده ((لا تأثير للحكاية على الكلام؛ وليس لها مساس بالأمر طبقا لتحليل ناقد قارئ، لكني اكتبها فقط كتذكر، ومضة خاطفة مرقت بسماء الذهن لحظة الكتابة)) ص٧٨، أما هو(زيد الشهيد) المؤلف الذي تقمص شكل السارد فقد ظل مخلصا لمهنته الأثيرة((يا إلهي!! لماذا اكتب هذه الرواية المؤلمة.. إنني أتمزق من الم نجاة، واحترق مع اشتعال جوفها!! يا إلهي إنني اصرخ معها)) ص١٣، فالراوي في وسط الرواية، بل في المتن منها((وأنا الروائي اصرخ من هول الموقف.. آه يا إلهي! كيف لي أن أكمل هذه المأساة؟! إنني أتقطع ألما)) ص٤٧ .

يشكل عنوان الرواية(سبت يا ثلاثاء) إشكالية تركيبية أخرى في ضمن مسار اللغة فيها... فما دلالاته في (ثريا) هذا النص؟... يشتمل العنوان على دلالتين زمنيتين لهما قيمة معرفية تتوسطهما أداة النداء(يا) التي عادة ما تستعمل أداة للتصويت على القريب والبعيد...(السبت) يوم اليم، ومقرف في حياة(مناهي) إذ أخذت فيه غصبا((كان سبتا مشهودا، غاصت بترسبات دقائقه مأخوذة بلذاذة غير مجربة اثر حركات يدين دافعة أعضاء جسد متوترة دلالة الرفض، إشارة عدم الرغبة في تلويث صحائف طهر ناصعة)) ص٨٧، أما(الثلاثاء) فيوم مشهود في حياة جسر السماوة الذي مزقته الصواريخ المعادية في أوائل التسعينيات((أم نعمان هاجمها الشلل المباغت؛ أقعدها الفراش[...] هي الآن فاقدة لكل شيء إلا ذاكرتها المشتعلة تجسد وليدها ساعة أبصرته ممزّقا على قارعة الطريق بعد حلول كارثة ثلاثاء الجسر...))ص٢٩، ٣٠.

فالرواية تدور بين اغتصابين: خاص، وعام وبينهما تنوء اللغة بحملها الثقيل جامعة بين (مناهي)، و(النهر) حيث رقدتها الأبدية تُعَمِّد الجسد بطهارة الماء موتا.

(سبت يا ثلاثاء) رواية ليس من السهولة أن ينسجم القارئ الاعتيادي معها؛ فهي تضع متلقيها إزاء نوع من اللغة الساردة غير المألوفة، لغة تتمرد على البنى التقليدية لتقدم نفسها بديلا فنيا يمتحن القارئ والمؤلف معا، عصيّة إلا على من أدمن القراءة، وفهم فك المغلق، وسبر صرامة التأويل، وصبر على محنة نفسه... ولكنها في الوقت نفسه تعلن عن ترفعها عما هو ساذج، وسائد، ورديء.

(*) نشرت في صحيفة (القدس العربي) التي تصدر في لندن العدد ٥٦٦٣ بتاريخ الاربعاء ٢٠٠٧/٨/١٥

سبت يا ثلاثاء .. صعوبةُ رواية أم مأزق بلد ؟

بقلم : كلاديس مطر *

كنت أعيش في هدوء و دعة نسبيين قبل أن يقحمني زيد الشهيد في روايته ! .. و كما يقع المرء متفتتا على الأرض ، هاويا من عل .. كانت سقطتي هكذا ، مميتة !!!

و أقول صدقا أنني حاولت التملُّص عدّة مرّات من قراءتها ، تارةً بدبلوماسيةٍ متعللةً أنها تريد ناقداً أكثر منّي حنكةً و فهماً ، و تارةً أخرى ، بعد أنْ أُسقِط من يدي، بسبب صعوبةِ قراءتها ! و في كلِّ مرةٍ كان الكاتبُ يلحُّ و يطلب مني الصبر فالفرجُ آتٍ بعد بضعةِ صفحات .. (اصبري و ستسعَدين بها و ستفهمين ..)

و الحق لم أكن افهم أبدا لمَ يجب على القارئ أن يتسلق حجارةَ لغتهِ الشديدة الرمزية و بلاغته المهولة اللفظية ... و كيف له أن يصبر قليلا قبل أن تنفتح أمامه أبوابُ جنةٍ إبداعية مفترضة !!!

و غذيتُ خطواتي و اتكلتُ على الله و قلت فقط وفاءاً للأدب سوف أسير في درب الآلام هذا لعلّي أجد في ذلك خيراً لآخرتي !!!

و بدأتُ انبش في جارورِ النظريات النقدية التي لدي لربما تتعثر يداي بواحدةٍ على قياس هذه الرواية فارتاح و أُريح .. فلم اعثر على شيء يستوفي الغرض ، و لا استطعتُ حتى بكلِّ ما لدي من (عدّة نجارين) أن أُركِّب عليها جدولاً مرقما معدنيا فاسبر بعض ميزاتها و الأهداف ! و فجأة فكرت أن فهم القارىء لربما يكون هو مسطرتي المعدنية للقياس ، فطالما استطاع أن يفهم الرسالة التي يريد إيصالها الكاتب فإنَّ جودةَ العملِ حتميةٌ . أليس الفن هو نوعية الحوار !!!

أليس جودةُ الحوار بين الأثر الأدبي و القارىء هو ما يشي بمقدرةِ العمل الفنية ! و ربما كانت هذه الفرضية النقدية البسيطة هي المعيار الأول لنجاح أي عملٍ أدبي على الإطلاق !

و أكملت القراءة ، و بدأت شيئا فشيئا ، تسقطُ أسلحتي النقدية و يهدأ غيظي من صعوبتها ..و أخذتُ أطفو فوق صفحات الرواية من دون أجنحةٍ ، و ادخلُ في ملكوتِ الكلمة التي تتحول إلى قذيفةٍ ، و الرمز الذي يتحول إلى روح ، و الفكرة التي تنقر عقل المتلقي بهدوءِ جدولٍ رقيق يتساقط بحب فوق صخرة !

حين بدأ زيد الشهيد يكتب هذه الرواية كان العراق يقع تحت حصارين كريهين ؛ حصار الأمم المتحدة و حصار صدام حسين ! صحيح انه بدأ كتابتها خارج العراق و لكنه أكملها بعد أن عاد إليه ثم ما لبث خارجا من البلد مع أسرته بعد أن ترك روايته في مكانٍ خفي خوفاً من افتضاح أمرها ثم الملاحقة !

إنها رواية سياسية من الطراز الرفيع ، لا شيء هناك سوى السياسة ، السياسة بمعناها الأكثر تدميراً ، و الحب بصورهِ الأكثر تشويها . لن يعثر القارىء في هذا النص المفتوح الدائري الأسلوب ، الحلزوني الحركة على (.. قالت له . أو.. قال لها ..) و إنما سوف يتقلبُ مع هذه اللغة الجهنمية الحارقة الفذّة ، المنبطحة .. المُقعَّرة الجارية كنهرٍ مثقلٍ بحجارةِ قاعهِ ، و أوراق الهزيمة و الحصار و الحروب المتتالية ، حروب العراق ، تطفو كورق سقط على صفحته .

سوف تشعر حالما تمسك الروايةَ انك لا تعرف لغتَكَ العربية ! هذا هو درس الكاتب الأول لنا ! إنها مغامرة لغوية أن تقرأ (سبت يا ثلاثاء) قبل أي شيء آخر . فالدخول في لعبة الكلمات المتشابكة المحبوكة بتؤدة و حرفية و مزاج و صبر أمر فريد من نوعه في هذا الخطاب الروائي . و أنا ، أقولها هنا في مقدمة هذا الكتاب ، أنني لستُ متفائلةً بطولِ أناة القارىء و قدرته على ملاحقة الفكرة ، لأول وهلة ، تلك التي تتلوى كأفعى ، كإخطبوط في كل الاتجاهات من دون أن تكون هناك فرصةٌ (تقليدية) لمعرفة من أين ابتدأت و أين ستنتهي ، مع أن هناك خيطاً غير قابل للانقطاع يربطها من أولها إلى آخرها . و لكنّي متفائلة قطعاً ، انه حالما ينتهى من قراءتها ، لن يعود هو ذاته ، لذاته نفسها !

من المضحك أن تقرأ نصوص زيد الشهيد مثلما تقرأ أي نص عادي آخر مثلاً ، لأننا لن نستطيع أن نكمل بكلِّ بساطةٍ ... و هنا ، في هذه الرواية كلُّ الأحداث و الحالاتِ مقلوبةٌ على قفاها ، تماماً كما هي الحياة في العراق تحت حكم صدام و أزلامهِ . و إذا أردت أن أقدِّم توصيفاً دقيقاً لها أقول أنها تشبه فيلم سينمائي مصوَّر بعدساتٍ مختلفة ، مُقرَّبة و مُبعَّدة ، حيث الشعرُ في صميم أللقطة ، و حيث المشهد يُغني عن السرد . و إذا أردنا أن ننزل إلى طبقاتٍ أعمق من هذه الرواية ، نقول أنها لم تُكتب على ورقٍ بالمطلق و إنما هي في عقل الكاتب فقط ، و ما بين يدينا الآن ليس سوى تحليله كروائي لإحداثها غير المرتبة و المتداعية و المتشابكة تماما كالدمية الروسية الخشبية التي تحوي في داخلها دمية اصغر فأصغر .. الخ (يتدخل الكاتب في الرواية أكثر من ستةِ مرّات ليذكرُنا بحضورهِ أثناء السرد ككاتب و راوٍ ....كأن يقول مثلا ، تقول مناهي هامسة لي أنا الكاتب ... أو يقول .. لم اهدأ أنا الذي اكتب رواية تدور إحداثُها في مدىً زمني لا يتعدّى الساعات .. أو يقول ...و اكرر أنا الروائي ..) . وحتى العنوان (سبت يا ثلاثاء) وهو عنوانٌ مستفِزٌّ اعتقده اشارات (تواريخ) افتراضية لأحداث قد تكون حفرت وجودها واحتواها متن الرواية ، وقد لا تكون كذلك . فقط أراده ترميزاً زمنياً ابتنى تأثيرَه من نبراتهِ الصوتية المُنغَّمة بحيث يبدو كمازورةٍ موسيقية .

مرة ثانية يشعرك زيد الشهيد انك لا تعرف لغتك حين يكتب ، و لا ما يجري في وطنك حينما يسرد ، لا .. ولا يخطر على بالك أنَّ هناكَ مستوياتٍ (مختلفة) من الإبداع حين يريد أن يتحدَّى ناقدَهُ و القارىء . و في لعبته هذه ، لا ينسى أن يُدخِل الأسطوري التاريخي و يُقحمهُ بكلِّ انسيابيةٍ في تاريخٍ يُفتَرَض انه حديث ! فهناك اوروك (العراق) و أنانا و انليل ، و كل هذه الزفرة القديمة التي تعطي لليومي المعاصر بعدَهُ الأكثر حقيقية . و لأكون أكثر دِقَّةٍ أقول أن هذا الخطاب يؤثث لكي يؤرِّخ للهول ، بأكثر الأساليب نزقاً و عنفاً بالنسبة للمتلقّي ، و بأكبر كميةٍ من الألم بالنسبة للكاتب !

في مكان من الرواية نجدُ الألمَ يصلُ لمداه ، .. (لهذا صبرنا و صبرنا و صبرنا و صبرنا و صب.. ر.. نا حتى عابَ علينا أبناؤنا أعمامهم . ثم خرجنا من بين ثنايا جدارِ الوهم ، التلاشي على خدائع الانسحاق : محطات مضبَّبة ؛ تعثر متناسل ؛ عالم مثقوب ؛ أوجاع مستورة ؛ و أوجاع مفضوحة تصرخ كفى عَدوا .. كفى !) ....

تجربة ...روائية جديدة يخطُّها زيد الشهيد .. ربَّما هكذا أراد و هو يسرد لمأزقِ بلدٍ ظنَّ أفرادُه في وقتٍ من الأوقات أنَّ الله تخلَّى عنهم أكثرَ من ٣٥ سنة !!!

- روائية وباحثة سورية

الروايـــة

لا تني أقواسُ الغبار تُطبق على أبواب الغرف وما يستكين خلفها بغتةً وميض عرس المغيب حتى الشبابيك .. صمتُ الزمان بهيمنةِ صرخةِ مخلوقٍ لجوج يكرِّس غبطةَ دبيبٍ يختمُ نكوصَ المكان (المكانُ حوش ، حسبوه أربعةَ أمتارٍ طبقاً لتعاقب أجزاءِ النهار بامتداد تماسّه مع الغرف الثلاث) .. ونجاة ترقبُ بحدسِ نهارِها الضائع تهالكَ كرةِ البرتقال مسحوبةً بأصابع الرماد المُنهمر من أكمام الغمامات بينما يدُها _ يَد نجاة طبعاً لا كرة البرتقال حتماً _ تلاحق تكوُّراً لا وهميّاً يتهدَّل ما بعد النهدين نزولاً .. غيرُ آبهةٍ جموعُ الصغار تُلاحق أُنسَها المنثور تبعثُراً على تعرّجات اسفلت الشارع كتعبيرٍ عن ردِّ نداءات الامّهات يعرضنَ بثقوبٍ تحيطُها هلالات لحمية تسمى شفاه ؛ والثقوب كتعبيرٍ عن كلمةِ أفواه .

يتقهقرُ النملُ الحنّائي عودةً بضئالته إلى أنفاق تكتنزُ هموداً يُسمىُ سبات أو نوماً أو ركوداً ؛ أو أي شيء من جمودِ الحركة الذي يُجر إليه جَرّا ، انطلاقاً من أنَّ الركودَ نقيضُ النشاط المعهود جهراً ، ايذاناً باطلاق صفّارة البدء للبرغش لتناول وجبتهِ من التحليق أسفل مرائبَ الضوء .

ضوء النيونات المتَّكِئة التصاقاً على الجدران لا يفي الغرضَ المُرتجى فتهرعُ شهوةُ البرغش ، يصاحبها النملُ الحنّائي المركَّب بأجنحةٍ كاذبةٍ نزولاً عند لزوجةِ المصابيح الصفراء .

لا يضيرُ نجاة هذه الاحتفالية المُربكة ، أو لنسمها الفوضى المُفزعة للمارّة ، أو للّواتي يمهِّدن الآن وقوفاً في المطابخ شهادةَ تقديم عشاء الأزواج _ على افتراض أنَّ الأزواج يتقدّمون أهميةً على الأبناء _ أو استعجالاً بحلمِ مراقبة حلقاتٍ يمتزجُ بدفينها الوهمُ بالخيال ، بالحدس اقتراباً من نقيض الواقع الذي نطلق عليه اليومي ، حيث فضائحُ الغواية (الشاشات) تتبهرجُ بنوازعِ الألوانِ واحتراقاتها على شيء اسمه الصورة . والصورةُ يعرضها كيانٌ مكعَّب أو مربّعٌ مجسَّم تذكّرت نجاة بعد جهدٍ أنَّ اسمه تلفزيون . وتذكّرت أنْ لا ضوء لديها ينتهكُ جماليةَ الأسود : الأثاث أسود / الصور الجدارية سود / الأرض سوداء / السقف أسود . وحتى الهواء باستباحةٍ يقضمُ السواد ويلتهمه كتأكيد على أنّه مُهيمن ستؤول منتهى الأشياء وترسو عند بياضهِ الأبدي . فعامل الكهرباء أغراها برغبةِ قطعِ التيّار كبوحٍ عن تحويلِ فاتورة الدفع شرائحَ صغيرة مطرودة من يدِها ومرميةً تستوعبها قارعة الطريق عبرَ الزجاجة الهوائية للنافذة المحتكّة بظهرِها على جدار البيت ؛ يمين الباب الرئيس الذي دوماً يَسمع سؤالاً من بُطين النهر (النهر هناك أمامها منذ عشرين خريفاً + عمرها _ عمر انتصاب الباب لأول مرّة _ وبحساب النتائج مؤكداً سيصبح خمسيناً) : هل هذا بيت أمُ لجّة خراب أرعن ؟ .. فجيبه الباب ويشاركه بانفعال نسيج الرمل ؛ ثوب النهر : تتغافل يا نهر !.. ثم : كيف تنقُض صفحةً من مدوّنات تاريخِك ؟ كيف ؟!

سمِعت من وراء دركاتِ الطابوق المُجصّص مُفتَّت الحواف صوتَ حليمة ، جارة البيت تقول : إطفئي التلفزيون الآن .. إطفئيه . صوتُ الله يدخلُ البيوت .. إطفئيه ؛ وإلاّ عاقبنا بقلبِ سافلِها عاليها .. آ .. ماذا قُلتُ يا ربّي ؟! . وصحّحَت الخطأ سرّاً فقدَّمت عاليها على سافلها .. إطفئيه ، وهي تقصد فاطمة ؛ لأنَّ فاطمة بنت حليمة استحقّت بجدارةٍ منحةَ دخول المراهقة من أوسع سنتها الرابعة عشرة . وهي بهذا لا تأبه لشيء اسمه أذان ؛ فماجدة الرومي لم توِّذن على بارجات البيوت المقدَّسة التي تسميها حليمة مساجد .. لم نسمع يوماً أنَّ امرأةً أذَّنت لباريها . ذلك أنها خارجة عن قانون النداء القدسي المُعلَن كافتراض انثوي . لهذا كانت الرومي تُحلِّق بعاطفتها مع " الجريدة " وهي تلاحق مِعطفاً صوفياً بلون الباذنجان ، في يوم ندي نُدركه آخرَ المقهى شابّاً تحايلَ المُخرج على طريقة _ على عنادك _ أنْ لا يُرينا وجهَه .

سكاكينُ الألم باتفاقٍ حميمٍ مع خناجرَ الصمت تُعلنان شعوائيةَ حربٍ لا هوادة لغدر لحظتها زحفاً ؛ حدودُها جسد نجاة . مساحةٌ بقدر بقعةٍ ؛ تركيزُها يدور أسفل تكويرة تشبه بالونة شُبِّعَت بالماء .. فمُها المطّاطي اللدِن تحدُّه نقطةُ انتهاء الفخذين _ مثلث شعري غزير _ . تصرخ آآآآآآآ فتمتص عبارةُ الرعب آخرَ ترنيمة الآذان : الله أكبر .. ألله أكبر .

حفيفُ أقدامِ الراكبين صنادلَ وأخفاف باتجاه المسجد القريب لا يُعير لفتةً للصرخة . لأنَّ الصرخة غدَت مألوفةً من عيني مخلوقةٍ وضعوها في قاموس الكلمات المُلغاة من الادراك الانساني ، مُحتسبين أنَّ مَن فقدَ العقل لا تُطلَق عليه أدوات الاستفهام مثل : ماذا ولماذا ، وكيف ، وهل كسؤال عمّا يعنيه شعارُ الرعب أو اشتعالُ الدمعة ؛ أو تأثيرُ الشتيمة المقذوفة من خلف الجدار ! (يا إلهي !! لماذا أكتبُ هذه الرواية المؤلمة .. أنني أتمزّق مع ألم نجاة ؛ وأحترق مع اشتعال جوفها !! .. يا الهي إنني أصرخُ معها آآآآآآ) .

وتتفككُ تراكماتُ الانتظار . باعتبار أنَّ نجاة تنتظر على نقرات خجولة مقصودة الانخفاض بتأثير عدم اسماع الغير يطلقها فمُ الباب : افتحي .. افتحي ..

تقول مناهي : عندما فتحت نجاة البابَ نشجَ النهر وهو يرى إليها . قرقعةُ الدموع تطقطق خلفَ أذني ... قلت : هل تسمعين ؟! .. قالت وهي تفتح مغاليق العينين : هل تسمعين ؟! ... هي تقصدُ ألمَها ؛ وأنا أقصدُ ذلك الباكي الحزين . تذكَّرتُها تغنّي . تقول مناهي : تذكّرتُها بثوبها الحليبي المكشكش ، المورَّد بتوهّجات جمرة شفاه ورد الرمان . يأتيني صوتها تسيحُ منه عشرةَ أصياف ، منهمراً من سطح البيت ، على سلّم الهواء ربيع ما قبلَ عشرين حولاً ، هُطولاً إلى الحوش عندما كانت أمّها تقلّي " كباب " العشاء عصراً بانتظار عودة أخي كريم ؛ زوجها . أقصد زوج أم نجاة .. يوه !! أقصد أبا نجاة وهي تغازل الشط : " أيها النهر لا تسر // وانتظرني لأتبعك .. أنا أخبرتُ والدي // أنني ذاهبٌ معك .. فانتظرني لأتبعك " ؛ ذلك أنَّ المَدارس كانت تعمّق الحنين في نفوس الصغار وتجعلهم يرحلون مع أكفِّ العاطفة ، دافعةً بهم إلى الذوبان في جذوةِ الحياة السائرة بتحليقِ رذاذٍ مطري ؛ حيث النهر شريانٌ أثير للطبيعة انطلاقاً من كونه يحظى بعالمين : عالم حيوات تتنازع على كتفيه ؛ وآخر يمور بحب البقاء داخل أحشائه . وهي نجاة لم تغنِّ فقط للنهر الذي لا يهرب سوى امتار عنها عندما كانت تقف أو تخطر عند شرفة البيت المتطلعة دوماً إلى الشارع باتجاه أشجار الكالبتوس الذي يعلو قامتها وتراه يجاهد للصعود ارتفاعاً . تطلق لسان العندليب لبهيجة : " أَحَبّ الناسِ لي أمّي // ومَن بالروح تفديني " . وتخفض صوتَها لحظةَ الترنُّم كتصريحٍ واضح عن خجلٍ تفضحه بهيجة لدى سماعها ، فتهرع لاستقبالها آن النزول . تلثمها وتحتضنها قائلةً : " يا عيني على المدارس ، تعلّمكم الحلو الحلو .. نزول على الملاّيات ." .

لنهرِ الصِّبا أريجٌ فرَّ منها وابتعد ؛ مأخوذاً بسبابات الورد البازغة من انبعاجات سيقان الشجر تيمناً بأمل تقمصها واستحالتها ثماراً تتباهى ونزوع العيون للابحار بحرارة الألوان الطيفية الباعثة على الرحيل باتجاه الأماني التي بشكلِ حلم أو بهيئة صورة تلوح لهنَّ من بعيد فيصبَون إليها عدواً ؛ حتّى أذا تناهت المسافات بقدرِ خطوات سقطت الأقدامُ خديعةَ الوهمِ .." أوهام .. أوهام . كلّها الحياة أوهام !! " تنتهي مناهي بهذه التمتمة المسبوقة بتنهيدةٍ طويلة مكانَ دخولها الدار . ورغم حذرِها تكادُ القدمان تتعثران فيحدث فعلُ انقلابِ الصينية بما أحتوت من صحن يُظهر رزّاً ، وآخر لمرق الباذنجان تفوحُ على أجنحةِ هوائه رائحةٌ مشتهاة ، تداخلاً مع ذوبان السمن النباتي المتخلّي عن استدارته المعهودة في طفو الصحن .. تقول مناهي : " امسكي الخبز ! " .. تناولُها نصفَ رغيفٍ بعدما تفرغ من وضع الصينية على الأرض تحت نجوم أرهقها غيابُ القمر . تقول : " كُلي ! " .. ثم : " هل تشعرين بألم ؟ " .. يضيع السؤال بفعلِ حركة قضم شريحة الخبز بين الأسنان

. لهذا جاء الجوابُ صمتاً وهمهمةً دلالةَ انشغال اللسان بوظيفة لوك الداخل . تقول تخاطبها : " لا تتركي شيئاً للقطط والفئران . أنتِ جائعة . "

لحظات ؛ وسط شهية الباذنجان والتهام الرز كتلاً البابُ يخبرُها بانطباقهِ وتلاشي صورة العمَّة . عندها الليل يقول : أنا لكِ بكلِّ كوامني وسكوني .؛ هيّا .

قبل تسعة شهور من ساعة حلول هذا المكان نجاةُ تطلي كفّيها بحنّاء الفراغ . وتتعطَّر بغبارِ الحيطان . تلعقُ مِلحاً يتقطّر من انبعاجات الشقوق ، وهي تموء مثلَ قطّتها (أينَ القطَّة ؟ !) .

تنتفضُ ضحكات القدّاح تمثيلاً وهي نجاة تسابقُ ندى وضحى في قطف أكبرَ عددٍ كبرهان مؤكَّد لحفاوة اللحظة ونيل تكريم ثقةِ التحليق صُعَّداً في سماوات الرضا .

وتقف قبالةَ نيونات مزروعة وراء النهر النائم تحت لحاف الظلام . لا شيء غير محفِّزات بعثِ الأساطير التي نسيتها . فلا ذكر لغيلانٍ وسعالى وتهدُّجات مسوخ تسمعها ممزوجةً بنبرات التخوُّف والفزع تنسكب من فمِ بهيجة كتحذيرٍ لعدم بقائها حتى الغروب سائحةً على امتدادات رملِ الشاطىء ، ركضاً على نديف الرمل .

هكذا تتذكّر شراذمَ رؤى تطفو ثم تسيح .. تطفو وتسيح .. تطفو .. تسيح . " تركتني أمّي ! " . تقول تكلِّمُ الهواء " بعدما أوصت ندى وضحى أنْ لا يبتعدا عنّي . "

الذاكرةُ معطوبة ، أضاعت عنها مستقبلَ ندى .. وحتّى ضحى . لا سؤال يتردد أين أصبحتا . وبهيجة تخاطب البنتين : " لا تتركاها !" لأنَّها تعرف كم يغريها النهر فيُريُكها بغوايته . لقد فعَلتها مرتين كانت خلالهما تشبع غرقاً ؛ مدفوعةً برغبة مصاحبة سلحفاة كانت تمسكها نائمة على دفء الجرف الذي تجيء به الشمس . تضمّها في حضن ثوبها . تعودُ راكضةً صوب البيت فتواجَه بمعيقةِ متعتِها وهي بهيجة تقول : " ارمها في الشارع . ستطبع رائحتَها الكريهة على كفِّك وستبقين شهراً تحت طائلة جيفة الرائحة . " .. راكضةً أيضاً تعود بها البنت إلى بيتها الكبير ؛ عالم النهر . تقول للنهر : " لا تؤذِها سلحفاتي . تجلبُ لي يومياً أخبارَكم . " .

إذْ تعود تتشتَّت لديها الرموز ؛ وتتبعثر . تعود النيونات ولكنْ باعدادٍ تتضاءل تدريجياً دلالةَ انغلاق الأبواب وانكماش الغرف حيث الخلائق تروح تمتطي خيول الكرى .

والكرى يعابثُ نجاة ليلاً ؛ يأتي لها بما لم تأتِ به قوافلُ النهار . في الليل تنسى اللغطَ والضجيج . تنسى لهاثَ الأرض / صخبَ الصغار الخارجين من مدارسهم / العباءات المهفهفة لطالبات المدرسة القريبة / الرجالَ الصارخة بهم دكاكينهم كي يحثّوا الخطى لمواربتها . تنسى الموظفين المتطيرين صباحاً من عقوبات يتلمَّسونها على شفاه مرؤوسيهم ، مع أنَّ الرواتب لم تعد تعني لهم ذات قيمة . تنسى المتسوِّقات وهنَّ يواصلنَ حديثَ الثرثرة أو محاورةَ الصمت ، وزنابيل بهيئة تيجان تقطرُ عصير الطماطة الرخوة على رقعة العباءات فوق الرؤوس دلالة انتهاء مهمّة التسوُّق .

وتأخذها المساءات المشتتّة إلى طَرق أبوابِ الاستذكار التي تظهر وتختفي بلا دعوة ولا استئذان حتى تؤول إلى متكأ الجسر الخشبي . تنغرز العينان في منابت امتداداته . يتراءى لها من أحدِ مربعات الشبّاك المحتك بظهره على الحائط وهو يكشف وجهَهُ لفراغ الشارع . مرّةً بل مرّات تعود إليها لحظةُ نباهةٍ شاردة ، فتصرخ بفم الفقد : يا جسر ! أينَ العابرون ؟! .. أينهم ، يا جسر ؟!

ولكن لا جسر هناك .. لا جسر ، يا نجاة . هناكَ دوَبٌ بهيئات الاتِّكاء أو الانقلاب على كتف التواصل الرملي . دوَب مثقوبة ودوب منبعجة تقطَّعت منها أسلاك وحبال حديدية كانت سلاسل .. يا جسر !

وتعوي مثلَ كلبةٍ طعينة .. جسر شاهد حدث الزمان ، يوم نُقِلَت فيه من محفّات الوعي إلى دركات التقهقر مُصطلِحاً عليها وبجدارة لقب مجـ..نو..نـ..ـة .. آ ، يا جسر ! ... ومن بين الركام الاسطوري يلوحُ لها " عريان " شبحاً كأحد الذين تعرضه الأفلام التي برعَ مخرجوها مستعينين بأحدث تقنيات أواخر القرن العشرين تجسيداً لرؤيةٍ مُرعبة .

تتراجع الصارخةُ مستعينةً بفعل الأنين المُخدِّش . سكاكين وجع تنبعج بغتةً وسط انتفاخ النهدين ، فيستقبل النائمون بوادرَ عواءٍ يرتفع .. يعلو شاهقاً : عووووووو.. عووووووو ؛ ينقسم سامعوه فئتين : واحدة تُعلن من على منابر الضجر رغبةَ حضور عزرائيل حتى يقلّها بعربته نحو العتمةِ الأبدية ، مُنهياً حكاية الفزع اليومي . وأخرى تفوه بألم ، مستنجدةً بما تتذكّر من مفردات الرأفة والتأسي . بعدها تسقط وهي نجاة كاسفنجةٍ على حافة الطابوق الفَرشي (خطٌ يرسم حدّاً بين الحوش ومساحة ترابية ما تزال عينُ الاسفنجة تتمثَّلها حديقةً ، اعتماداً على شجرة التين وريثة كيان زراعي كان يوماً ما يملأ الساحة ويشهق مع تعاليات الحيطان) .

انهياراً كان السقوط ، بغير انتظام ... تلوذ الهاربة من بقايا شبح عريان . (من هو عريان ، يا نجاة ؟!)

على انفاسها المتلاحقة تنهض حيوات الصراصر عامرةً بالازيز : زززززز تنبع من زوايا الغرف ؛ من تحت الاثاث ؛ من ثقوب السقف ؛ من الشقوق المتقاطعة . سباق يومي واستمرار تواصل أزيز : زززززز تعبيراً عن يقين يلتقي وسط النهر الذي سمعناه يهتف : هل هذا بيت أم لجّة خراب أرعن ؟!

يأتي جرادُ الليل على عمى انطفاء الاضواء ، مستدلاً بذبذبات النشاز فيلتقي سرباً بعوضياً مهوِّماً .. وهناك ؛ على الارض المترسبة بتماسٍّ مع حرارة اصابع القدمين يمارس " ابو جعل " معتمداً حرية الحركة جمعَ كتلةٍ كروية يدحرجها دون هدى فيما ينبح في الخارج كلبٌ ، راكضاً خلف قطّة تسلقت طبقاً لغريزة ضمان السلامة سياجَ بيت حليمة ؛ وصوت لا نميّز جنسه آتٍ من وراء السياج بتمتمةٍ تنضح ضجراً : متى تنتهي هذه الفوضى ، يا ربّي ؟!

لا ندري ان كان " ابو بريص " واتباعه الرافلون على أرضيّة الحيطان تداركوا هذا الاحتجاج أم كانوا منهمكين بحَبْكِ سيناريو الصيد باسلوب الغدر المنظَّم عبر اسقاط الجراد المستكين والذباب الغافي والبعوض المستأنس لفراغ المكان في شِباك الفم باعتماد وسيلة صيد نستخدمها نحن للنطق بينما نجاة تحلم ... تعودُ عالماً ضجيجاً بالعصافير والفراشات والشطوط ومفازات الرمل الطري . تعود إلى ندى : " تعالي ! " .. " بل أنتِ تعالي ! " .. تقول ندى وشعرها يهمس أنا ذيل حصان ، اتدلَّى على تزاحمِ زهور الثوب .. " تعالي يا نجاة ".. تقول : " أين ؟! " .. " يوه تعالي بس !!

ظل شجرة " غَرَب " يغري ندى بسحبِ زيق ثوبها ؛ تستجيب .. تقول : " انظري ! " حلمتا صدرها تبرزان على علوين ناميين .. " هل صار لكِ مثلَ هذا ؟ ".. تسأل نجاة .. تكركر .. تكركر . ونجاة بفم الدهشة تجيب : " لا !! كيفَ حدث لكِ هذا ؟! " وندى لا تدري بما ترد سوى أنها استمرت تكركر : كر.. كر .. كر....

تفيقُ على خدرِ يدها ، يفعله ثقلُ الرأس بتراكم الساعات المغموسة بالفراغ . تنمّلٍ يدب . شلل وجدَ مبررات سيطرته على دمٍ ولحمٍ وحزمةِ احاسيس جُلّها معطلة بتأثير عَطب الاعصاب . (الاعصابُ هيمنةُ الجسدِ . الجسدُ تابعٌ والاعصابُ رأس . الرأسُ مركزُ التوجيه والمتابعة والاستقبال .. الاعصابُ سماسرةُ الرأس ؛ لكنْ لا رأس بغير أعصاب .. لا لحم ؛ لا دم بلا أعصاب . يا للهيمنة : أعصاب .. أعـ ..صا .. ب ...أعـ.. صا .. ب .)

الصباح يفتح أبوابه . صخب العصافير يمحو نداءات تلميذات المدرسة .. المدرسةٌ تبعد بيتين من الجارةِ مليحة . ابصرت الصخب يكبر ؛ يتقافز خلل شجرة التين خلفها . متران والعصافير في زحمة تحاور ينتهي بحركة نقر الاغصان بآلات المناقير ترابيةُ اللون كتعبير عن تواصل الثرثرة . على مَن تتحاور ؟! ... شمسُ الصباح غذّتها بأكوابِ المشاكسة ؛

فلا الاعشاش تتخلّى عن الاناث المستدفئة ببيض أواخر ساعات التفقيس ولا ذكور العصافير تكفُّ عن تطبيق قانون الهيمنة .

وظلّت الخصلة سائبة متهدلة على أهداب عينها اليسرى تتشبّث بمَن يمسكها . لا مزاج طيّع يجعلها تمارس حركةَ رفع الكف وانحناءة السبابة في عملية ازالة ذيلِ الشعر. لهذا كل ما فعلته هو رفع الرأس لمطالعة سياج السطح . ذلك جعل النهاية منفلتة ؛ تنحرف فيقبض عليها النديف المُشعث ، المتكئة شراذمُهُ على مصاطبِ الكتفين .

ولما كانت طلعة النهار تحلو لابتهاج شجرة التين فإن اسرابَ الدود الحنّائي استقبلَ فرصةَ المهاجمة بشراسةِ اكتشاف مدخل مغارة الكنز وصولاً لفناء الصينية يبني له سواتر على حافات الصحون بينما أرتالٌ متفرقةٌ تأخذ لها مسارب عديدة تحمل غنائمَ اللحظة : فُتات خبز ؛ فُتاة رز ؛ فتاة من شرائح باذنجان ساعدت ساعات الليل على جفافه بعد بريقِ مثلث شمسي أحدثته انفراجة صفيحة معدنية هابطة من السطح حيث الشعاع يسيح ويصطدم بملامح باهتة لفتىً يؤطّر وجهَه وجزءً من صدرِهِ مستطيلٌ خشبي أخفى الغبارُ لونَه البنّي فأظهره رمادياً . سُحبُ البلاهة تطفو على انحناءة الهدبين الهابطين ، تعمّقهما استدارة حافز تذكّر أرنب رمته حليمة في بالوعة الدار يوم كانت حاملاً بفاطمة خشية مجيء الوليد أرنبَ يشقُّ شفّتَه السفلى سكّينٌ لا تقوى الايام على التئامها : حميد ! .. حميد !

حميد لا يتكلم _ حميد صورة _ حميد صبي ليس له إلا أنْ يصمت . أمّا حميد الآن فبعيد ... تدهش كيف صارَ ضابطاً هو الذي أدخلته فأرةٌ قميئة بابَ المستشفى والنوم على اسرّتها ثلاثة أيام واربعة عشر شرشفاً امتلأت بخارطة البول دلالة استمرارية الخوف . وتدهش أكثر من منامه بعيداً عن الأم . ولأيام ظلت تتخيَّله ينهض وسطَ ركام الليل وأنفاس الجنود ، صارخاً : بهيجة !! بهيجة ؛ ذلك أنه ما اعتاد قول "يمّه " لأنَّ كريماً كان ينادي بهيجة على طريقة مخاطبة الزوج لزوجته ... وإذ جاءهم بعد اسبوعين وخمسة مدن متتالية ببدلةٍ لها لون الرمل وقبّعة تشبه قبعة قبطان ، وفي يده حقيبة سوداء وابطه يضغط عصاً صاجيّة طرقت بابَها بناتُ الفرح . فتحت لهنَّ واستدارت لرؤية أمّها تقص حكايات الولد على نساء وهميات كتمرين للّواتي سيأتين . هذا إنْ كنَّ سيأتين .. لكن لا ! سيأتين مؤكَّداً .. يقول الحاج كريم : خففّي من اظهار فرحةٍ زائدة ، يا بهيجة لأن للحسد عيوناً تلاحق وحيدنا وتجرحه . رشّي الماء بعد خروجه . انثري " الحرمل " في الزوايا . بخّري المكان حتى تنسل شياطين الغيرة موليّة .

تضحك ؛ يسمعها لحظة شد قيطان حذائه ، متجهاً لجلسةِ ثرثرة في المقهى القريب . مقهى عدّتُها طقطقةُ مسابح ، وضرباتُ أحجار دومينو على وجوه الطاولات ، وتعاقبُ اقداح الشاي ، ومبالغاتُ أحاديثٍ يتخلَّلُها طيرانُ فيلةٍ ، وقلبُ اسود على بطانتها وفقاً لطريقة : اكذب .. اكذب حتى يسخر منك الآخرون .

تقول : " كل ما يخطر على بالك اعددته منذ أول غفوة له." .. وهو حميد يغفو على تعبِ تدريب ساعات ليلية وسط مستنقع يليق بالضفادع الناقّة وخنافس المياه الخضراء ، تحت سيقان القصب ذوات الرؤوس المنفوشة حين الليل يعزف فوق خشبةِ فراغه نباحاً لكلابٍ قروية بعيدة ، ونهيقاً لحمير سائبة تجوب الطرقات ، وعواءات قطارات راحلة تبرح المحطّات تطوّقُها العتمة والسكون ؛ فوقها أسراب بطٍّ سائحة تحلّقاً باتجاه الجنوب أو الشمال ؛ أو أي اتجاهٍ آخر .

وتتذكّر بهيجة بعد خروج الزوج : " انهضي يا افتخار . انهضي يا ابنتي . أين كيس الحرمل .. هل خُلقتِ للنوم ؟ . نجاة تقول أنها لم تلمسه ، وتقول أنكِ فتحته بيدك وشممته فتقززتِ من الرائحة .. أين يكون ؟ "... " دعيها يا أمي . ها هو ذا . لقد وجدته ." .. تقول نجاة :" دعيها تنام . أفسدتم عليها حياتَها . كل شيء جعلتموه على ظهري .. أفسدتموها ." . ترمي الكيس أرضاً وتدخل غرفتها فيما بهيجة تقول : لا تصرخي يا نجاة . لا تصرخي ، يا بنت . أخوكِ نائم ." .

لم تسمع افتخار كلام الأم ؛ ولا صوت الغاضبة لأنَّ النوم كان يشبِكُها بخيوطه . خيوطٌ تدور وتدور حول جسدها ؛ تمسك ذراعيها وتشد رجليها . وتائهة هي ، مأخوذة بغيمةِ كرى تطفو عليها فتياتٌ وفتيةٌ بملابسَ لها لون أوراق الشجر ، حاملين أقداحاً ملأتها سوائل مخلوطة ؛ كلّما رفعت الحالمةُ يدها وأفرغت انتقلت إلى محفّات وطيئة ، هابطة مكان دركات غياب الوعي والغفو شيئاً فشيئاً . وصوت ترددي يتناهى : نوم .. نوم .. هيّا إلى النوم . ويأتي صوت آخر هو الوجه الثاني لهواء : " يا نائمين كيف المنام يطيبُ ؟! " .. نواحٌ أم عتاب ، أم دفقةُ روحٍ معذّب ترحل بها موجة مسائية .. بقايا من ليل " علي سلطان " وطقوسه المقامة على أطلال حكاية عتيقة عندما نذرَ الايام لمغالبة محنته .

قالوا له : " ضاعت رسمية " فلم يصدّق . " رسمية سراب كاذب ، يا علي غابت ولن تعود ." ولم يصدق .. " ستجيء .. ستجيء ! " يقولها بثقة عاقل يرمي الوجوه امامه بسخرية مجانين . وذا حزن كتيم جاءته بنفسها لتغيّر فحوى الحال . ولتُميت _ وإلى الأبد _ كلمةَ انتظارٍ رديفة أمل .. قالت " مصائرُنا بيد أوليائنا ؛ واحلامُنا مشدودةٌ للمصير المرسوم ." .. ولها قال : " تبنّيتُ كل ما كنتِ تريدين وقلت : هيتَ لكِ ." " ..

آ .. الضوء الأحمر الخاثر من المصباح الصغير فوق باب غرفة تجهيز الشاي اشتعل ساعة رحلَ آخر زبائن الكازينو ، وتلك حمرة المصباح تقول : أنا وأنتَ والفرات يا علي ، وهذه الزجاجة السحرية .. هيّا لنشمل على أطياف رسمية . فرسمية الليل لنا . ورسمية النهار لبعلِها .. احتسِ .. اشرب .. عُب ؛ ثم دعنا نلف طرقات الروح (يهادنون ليلَ الأطياف ، متَّقين بذاكرتهم هوسَ النداءات كتعبير صارخ عن الاغراءات المتذبذبة بالتأرجح والخفوت . تدعوهم لولوجِ ثغر الغوايات . عِبرتُهم أنهم نهضوا فنظروا لِما قبلَهم . ألفوهم يُصلَون بسعيرِ الرحيل والفراق ، الفراق . لهذا ظلّوا يأملون فرصاً ترمِّم عثرات الاخطاء .) .

فوق ..

مع الرغبة ..

بين ثنايا الهواء العابر فاطمة تضع فخذاً فوق فخذ ؛ تماماً كما تفعل ممثلات الافلام بينما الكرسي ذو المسندين يمتلىء بكتلة الجسد احتضاناً .. احتضان شجن الزمن المُسال ؛ الليل المرصع بالاحلام ؛ رموش النهار ؛ رفيف العيون . والمآقي اتعبها الحصاد .. كتابُ الجغرافية المفتوح على الصفحة (٧) يُلاحق ثَبات عيني الرأس المتّخذ حركة السقوط على الصدر فيشاهد خللها قامةَ فتى احتدمت عبر طرقات شراييه ركضةُ غزالٍ نافر تنده به فاطمة : قف ! اقرأ لي هتافَ قطع المسافة بين الجامع وشارع المركز كنقطتين تمتدَّان على مستقيمٍ يتّخذ شكل الانحناء أو التقوّس غير الشديد .. كم بقي لكَ من عدد المرات المقطوعة ؟ وكم بقي لنا ؟ .. يقول صديقهُ : " اذا أصررت على الملاحقة فاحصُد أشواكَ الخيبة . "

ما راقه الكلام عندما أعلنت ساعةُ الظهيرة الانتصاف ؛ وسبحَ الاثنان بعرق صيف منتصف مايس .. يقول : " حتى الشمس تسهم في تعذيبي ! " . يتأفف .. ولم يرد الصديق ، لأنّه استمر يقول : " لماذا لم تقدّر حضوري وتدفع برأسها عبر الباب ؟ " .. الباب يضحك . يبعث خلفهما صمت انطباقه ؛ ويضحك .. يضحك فيما الرقم (٧) يرسم خطّاً فراغيّاً بين انفراجة ساقيه وثرى الحدقتين الخاليتين .

وكانت الأقدام الأربعة تطبع فحيحها على خشب الجسر البعيد ؛ واعدةً بالعودة مع أقرب مجيء عصر .

خطُ الهواء المتعامد ما انقطع إلاّ حين ختم مستطيلُ ضوءِ محيطِ الباب قامةَ حليمة الداخلة بعيني سمكة .. تقول فاطمة : عندما رفعتُ رأسي وانحسرت أسطرُ الكتاب ، واشتبك رقمَ (٧) مع (٨) لحظة الانطباق كانت حليمة ؛ أقصد أمّي تمارس مهنةَ تشغيل الحواس ، فتمخَّض أولُ انتاجٍ لها عن سؤالٍ يقول : ألم تكُفّي عن القراءة ؟!

وكنتُ أقول : ألم يكف طارق عن متابعتي ؟

ومناهي مراراً ظلّت تقول : ألم يكف الزمن عن الرقص على ايقاع التضليل ؟ .. تقول مناهي ذلك لأنَّ أقواس الغبار تُعلِّم لها وجوداً فوق الأبواب محتفيةً بكثافتها على استكانة الأثاث الراكد . كلُّ ذرّة تحسب لها مدىً .. وهل لحياة نجاة من مدى ؟

طيورُ الرحيل تحتشد عند الأفق . الضوء ينحسر رمادياً كلّما تفاقمت الأعداد . يتلوّى النهار مصاباً بالحمّى . ونكتشف بعد لأيٍ تبركنُ المنابع . ومناهي تقصُّ لحفيديها حكاية وفيق / جدِّهم الذي كلّمته " إينانا " من معبدها السومري وأهدته إناءً فخارياً يجمع فيه أمانيه ، وأختاماً تُفصِح حالَ تمريرها على مربع طيني أو مستطيل ترابي عن رُعاة يسوقون أغنامَهم لقضمِ جيوش الزروع ، وفرساناً يحملونَ رماحاً وأقواساً وسِهاماً . ثم لبوات تفترس خرافاً ، أو نمور تطعنُها أسنَّة . وأخرى لضِباء تهالكت تحتَ طعناتِ رماحٍ مديدة . " جاءني جدّكم كالمهووس ، وكأنَّ الاختام لُعباً تنقله إلى أزمنة الطفولة .. يكلّمني كما لو كنتُ طفلةً ، وأنا مناهي أشاركهُ لوثةَ العبث مداراةً أو خوفاً . ما نفعت آياتٌ ردّدتها ، ولا فورات فضّية تنفث بخوراً من مبخرةٍ أخرجتها بعد اهمال علّها تفي بتقليلِ هذيان يكبُر كالرغوةِ في رأسه .".

تنخطف لحظات الألوان فتشعر نجاة أنَّ السماء بلون الفراغ في قارورة منبعجة ، وأنَّ رؤوس الأشجار مرتفعةً بما يكفي لانحدار الرأس على انسيابية الظهر متدحرجاً حد افتقاد الانفاس بينما النهر يأخذ شكلَ حبلٍ متدلٍّ في السماء أو راكضٍ بطريقة الافق الممتد .

إلى الظِلال تنظر فلا تتبيّنها ، ذلك أنها راحلة على طبق غيبوبة الذاكرة . والناس راحلون على صدى نسيانهم لها ، وانشغالاتهم عنها . ونحنُ نتابع بِأعيُن القرّاء انغلاق المسارب ، فلا ندري ما في الداخل . ولا يبوح لنا هذا الذي اسمه الخارج بغير : انظروا .. تطلّعوا .. ؛ حدِّقوا ؛ ثم اصمتوا . لكنَّ الصمت انهيار الأسس وتلاشي الرؤى ، لأنّهم يقولون : عندما تدلهم الخطوب عليكم بالصبر . لهذا صبرنا وصبرنا وصبرنا وصبرنا وصبرنا وصب.. ر.. نا حتّى عابَ علينا أبناؤنا أعمامَهم . ثم خرجنا من بين ثنايا جدار الوهم / التلاشي على خدائع الانسحاق : محطّات مضببّة ؛ تعثّر متناسل ؛ عالم مثقوب ؛ أوجاع مستورة ؛ وأوجاع مفضوحة تصرخ كفى عدواً .. كفى !..

بعد العشاء يتداولون ثقلَ الأيام بمفردات الأسى الآتي . حليمة ومنصور الزوج ثم فاطمة يستعرضون برنامج الزقاق والبيوت المجاورة خلفهم فلا يحرزون ما يكرّس ثبات الأهالي وتشبثهم بمهاد ذكرياتم . تقول حليمة : لقد باع الحاج حميد بيته ورحل إلى مدينة أخرى ظنّاً في الأفضل . كذلك فعلَ ظاهر مدير البريد ؛ وقبلهم أم وجدان معلّمة فاطمة في الابتدائية . يأتي صوتُ منصور : " كانت امرأة ودود ، أحبَّها الناس صغارُهم والكبار ." .. " ولا تنسى يا أبي " . أكملت فاطمة " صديقَك أبا داوود ، هذا الرجل كثيراً ما كان يعتز بك ." . يجيبها بزفرة القلب تقطعها حليمة بايصاد باب الحوار الجالب لريح الهم . وتسمع فاطمة رجاءَ الأب يطلب علبةَ السجائر . تنهض وفي الرأس قولٌ وافر . أوّله نسيانهم لحالة نجاة إذْ نجاة تمثّل موضوعاً جديراً بالتداول . لكن آآآ . لقد شبعوا من الحديث عنها . تدخل الغرفة فتتذكَر صديقتها رفاه . حِزم الأوراق النقدية مركونة على قاعدة المرآة . والمرآة تعكس المزيد . تتذكّر أبا رفاه وكيف أفحمته هذه الحالات بحصاد ما حلُمَ به ساعةً . كل يوم يأتي بحزم الأوراق النقدية يملأ بها خزانة الملابس بعدما امتلأت صناديقٌ وأكياس .

تديرُ نجاة نظراتها آن دخول الغرفة لتستطلع الوحدة الجاثمة تحتل الفراغات والشقوق ، والزوايا . الأشياءُ هنا يطبعها الغبار . غبارٌ يتناسل مع أعمدة السقف . غبار على نجوى / نجاة الصورة المعلقة على الجدار ضاحكة وسط الوحشة ؛ ضاحكة ضحكة وردةِ قدّاح . غبارٌ يوشّح المرآة .. تنظر نجاة فتشيح سريعاً فيما غبار آخر يسيل على خزانة خشبية

متعامدة ؛ بابها الأول مُسدل يخفي حجماً نصفيّاً لا ندري محتواه . الباب الثاني للخزانة الماثلة مخلوع ومتدلٍّ ؛ نرى تقاطعين يعملان ثلاثة فضاءات . الأعلى مدّت إليه نجاة يدها لتمسح الوجه الذي غسلَ نفسه بماء الحنفية قبل قليل وطالب بالتجفيف فانبرت قطيفة قميص بكمٍّ مشجّر تعلن اجبارها لاداء المهمة . الفناء الأدنى تكوَّمت فيه أخفاف وأحذية ذات كعوب عالية ، وغيرها مسطّحة سوداء / بنيّة / بيضاء ، وألوان متنافرة تزاحمها علب بلاستيكية فارغة لشامبوات عديدة المناشىء والاسماء بينما الفضاء الاوسط حوى فراغات تنتهكه أمشاط شبكت أسنانُها كتلاً من شعورٍ متراكمة .

هناك فوضى زهور وأوراق واشكال تتبعثر على نسيجها قواريرٌ وحلقات ومثلثات ودوائر واختلاطات تتمازج مع ألوانٍ فاقعة أو داكنة تضيع فيها الأزرار بين الزهور وتحت الدانتيلات والشرائح المخرّمة ترفعها نجاة . تدرسُ الاشياءَ بتحديقٍ ذاهل.. يقول لها أحد الأثواب : البسيني اشتقتُ لتضاريس جَسدِك ؛ أرومُ رائحتَكِ . تنكمش عينا الناظرة ثم تقودها القدمان خروجاً .

جهدٌ بقدر حجم أمنية ؛ بعُظم فداحة الساعة ؛ بمجهولية الآتي يواصل نداءات الذاكرة المشوَّش بتماسٍّ مع تعثّر اللسان الناطق بالاسماء تفكّكاً . يناديها صوتُ الأب من غرفته فتصيح : ها ؛ كتعبير عن : ها أنا قادمة . عندما يقول لها استديري ؛ وتستدير بصدرٍ شغوف لا تجد الأب . تجد الـ " ها " ساقطةً عند عتبةِ باب الغرفة المُغلق وقد ارتطمت بصلادته . تدخل الغرفة بعدما يقول لها الباب ادفعيني (كل الاشياء تُفصح عن التفكك المطعون بلافتات تراكم الثواني وتبعثر الساعات . فوضى أزمنة يستهين بها المكان ولا يلين).

الأشياءُ ليست بأمكنتها ؛ والأمكنة ليست بتأثيثاتها .. كريم ضاحكاً بشعره المصفَّف الكثيف الدكنة الا من اختلاقات رمادية تُعلن ظهورها مِن على الفودين . العينان وسيعتان تعلوان امتلاءِ الخدّين اللذين يقولان ترفَ السنين المتوافق مع سن الهندام وربطة العنق اللامعة . لكنْ ! أينك ، يا حاج كريم .. أينك ؟ . تقول الدمعتان الملتصقتان بالهدبين الهاطلين شحوباً . فيجيبها جيشُ الغبار هادراً : أنا هنا .

ألمُ بطنِها يصرخ : اصرخي ، فتستجيب بقبضة اليد على الحائط . يغضبُ الالم .. يغضب .. يغضب . مجسّات لم يمسسها بعد فينشق الشدقان عن اوتار تتمطّى وتنشد بصيحة آآآآآآ ..

آآآآآ، يصيح الصغير المرمي بهيئة كرة إلى اعلى فيتلقفه حميد . والصائح بشعور فرح أو خوف يُفصِح عن ضحكة الابتهاج بعد النزول فيما فائزة توبّخه ليترك الطفل لئلاّ تنخلع معدته أو ينفلت من يده . وتصرُّ عليه ألاّ يعيد ما فاه به قبل قليل ؛ ألاّ يسعى ولو اقتراحاً التطرّق للموضوع . تقول : دعنا نتمتع باجازتك أنا وأنت وابننا فنذهب إلى الحبانيّة نصطاف ، ولا تحّملنا مسار أربع ساعات في علبة سيارتك جنوباً ... يقول بشيء من الخنوع أو بقدر من اظهار التعاطف مع الاخت البعيدة أربع ساعات قطعاً بالحافلة : لكني لا أعرف ما حلَّ بنجاة ، يا فائزة .

آن ترك الصغير أرضاً كان قرارُ العودة عن الرأي قد خَتم فحوى الرغبة وأسدلَ الستارة على الحديث . فاستمرَّت فائزة هي الفائزة . دوماً يعلن صوتها الظفر .

ثلاثة أعوام والباب ما هدهدته لمسات اصابع حميد . يتنهد وهو الباب ؛ يسأل بهمسِ الاشتياق عن ذلك الذي كان يخترقها خروجاً أو دخولاً كيف أبعدته بغداد واستحوذت عليه رماد نسيان السماوة ؟!

بعد شساعات حلول ضيق النفس وتشنّج الاعضاء الألمُ يسحبُ فرسانه ؛ والسيوفُ تعود لأغمادها . أما الرماح فتتخلّى عن مواصلة التوجّه نحو الهدف المقصود دوماً ، لكنها تظل تلوّح بالعودة والهتك .. دوماً الصدر يغترف هواءً ، غير أنَّ المرة هذهِ كان الاغتراف امتلاءً . حالة شهيق تصرّح بالارتياح ؛ والعينان محارتان تترجرجان بحريّة إزاء عالمٍ يندح بتأثير

غياب الألم . تتوافق حركة بدوائر فيضية ، بروق ، التماعات ، قطوف المجرات الشمسية تلاحقه . الكواكب الشاردة أو التائهة فرِحةً بانخطافات النيازك الهابطة احتراقاً أو اشتعالاً وتقدّحاً بغية اسعاد أطفال الكواكب حديثة السباحة عبر المد المفتوح ، وهاتيك العيون الجذلى : عيون تحاور عيوناً . وعيون تلاحق عيوناً ! عيون متصالبة ، وعيون تخطو على دليل الوميض الذي تطلقه أو الذي ينفلت منها تحرراً . وأخرى في طواف تحملها تقوّسات الرموش . أرنب يخطو على ندى الرمل البارد . تستقبله حواف الماء ؛ وتخاطبه فتاة النهر : ارضع من حلمات اثدائي . صيادو انتظار الفجر يتحلّقون حول احطاب تشعر باحساسها المتفاقم للتضحية وهي تحرق اعضاءها لانجاب نار يواجهونها بالسَّمر الحميم . هذا يتحدّث عن أمنية اصطياد عدد من الابزاز تكفي ساعة بيعها طلعة صيد بطول خمسة أيام وعشر شِباك . وهذا يحلم برحلة عبر خضرة مياه شط العرب يقطف الاقراش التائهة ويجر من جوف الخليج الحوت الذي طالما سمع الكبار ممّن أرهقهم البحر واندثروا باعمارٍ قصار يتحدثون عنه بشغف الحيازة ورجاء الإمتلاك ، فيما آخر يُمنّي النفس بليلة طويلة مع أم الاولاد التي لا بدَّ هي الآن تحاور عاطفتَها تحت نجوم سافحة شوقاً للقاء .. ويصمت آخر ؛ لا يفوه بشيء . يشغله سهوم يفشي بعض أحاجي الوهج السائح على انبجاسات الوجنتين . لا ندري بما وبمن يشغل عتلة التفكير .

وهناك عند الضفة الثانية " رفش " يترك الماء ويدنو من كتلة رملية متحجرة . يحك رأسه بحواف الخشونة سعياً لاقتلاع بروزات حرشفية بهيئة خيوط طحلبية أرهقته التصاقها وخضرتها الداكنة . يحك الرأس فيصدر ما يقرب الحفيف . يحك وعريان تحت الجسر البعيد ، يمد الجسد الرخو ثمِلاً عند خط تهالك موجات مبتورة تضرب ارتفاعات رملية احدثها انسحاب اقدام صبية الشاطىء متولعي السباحة والعوم عصراً .

يرى إلى قارورة العرق المنتصبة عند قدح امتلأ لنصفه بسائل حليبي يتلاصف مع نجمة ساقطة بتهالكٍ على سطحه . الحكُّ يُسمع ؛ والحفيف يتواصل والليل لا يأبه بهما . ذلك أنه كان يتابع بعين انتصافه أربعة ظلال ترسم خطى غير ثابتة وسط امتداد الشارع ؛ في الاعلى وليس في الادنى . تجاهد عيون الظلال بالتطلّع صوب الضوء الأحمر ، يساراً أعلى غرفة إعداد الشاي للكازينو المُغلقة . يقول الظل الملتوي باهتزاز يفوق الظلال المرافقة : " يا للمصباح المسكين ! سيبقى ساهراً لأجل فاقد رسمية حتى الصباح ." .. يتوقف فيما يواصلون ولا يمنحونه سمعاً . " تعالوا نطرق الباب ؛ هيّا .. " . لا أحد يهبه السمع . عندها يلتصق الهلالان اللحميان المُريلان ويطلق الثقب المليء باللسان رذاذاً يمتزج مع بقايا طززززز خافتة تتعثر متهالكة .

بواكير الألم ابتدأت منذ الأمس عندما قالت للقدمين أُريد الصعود إلى سطح الدار ، صدري يضيق والنافذة اعتراها ملل وقوفي .. القدمان قالتا : مستعدتان نحن رغم تعب ثقلكِ . خطت وكانت لحظات انقضاء القيلولة تترطّب بخضرة اوراق الكالبتوس واجنحة اليعاسيب المروحية وخروج المتسوقين لشراء فاكهة العصر (هل ثمّة فاكهة حقّاً ؟) ، وزعيق الصبيان المنتشرين على فراش الرمل يلعبون الكرة أو الداخلين مجرى الماء سواء بانسيابية النهر أو بطريقة التضاد . تقول اليسرى عند أول درجة مثلومة للسلّم الصاعد : تقدّمي أنتِ الأقوى . لكن اليمنى تحتج : لماذا تدفعيني أولا في هكذا موقفٍ .. ها ! .. ابتدئي أنتِ هذه المرّة . ترضخ اليسرى امتصاصاً للاحتجاج لا رغبة في الحركة . تطلب من نجاة باسلوب الدافع : ارفعيني فاستجيب . بيدَ أنها ما أن همّت بالفعل حتّى صرخ البطن آآآآآآآه . وآه تتلو آه ، وآه تعلو على آه . آهات أدّت إلى جفول القدم اليسرى وتشنج الفخذ . تشنج تلاه تهالك شقيقتِها . وكانت صاحبةُ القدمين (لولا اليدان اللتان تلقّفتا الجدار اتكاءً) كتلةً ساقطة بطريقة التعثر لا باسلوب الدحرجة .

داخلها أو ربّما أمامها تنبثق لحظة تناثر الجسم ثم الاهتزاز والتأرجح المنتهي بالأنين المكتوم مممممممم . كثيرٌ / وفير الأنين الذي يُسمع هذه الايام : أم نبيل ما زالت تئن وتنتحب بنشيج آيل إلى مممممممم لفقيد قُتل في محرقة الحرب قبل ثمانية أعوام من الآلام . كذلك أم نعمان هاجمها الشلل المباغت ؛ اقعدها الفراش . تقول عنه : دائمٌ ، والناس تعاندها بأنه مؤقَّت سينتهي مع انشطارات الانتظار . هي الآن فاقدة لكل شيء الاّ ذاكرتها المشتعلة تجسّد وليدَها ساعةَ ابصرتهُ ممزّقاً على قارعة الطريق بعد حلول كارثة ثلاثاء الجسر . تنتحب مأسورةً بمرارةٍ تنتهي باصطكاك الفكّين مممممم مستمر حتى جفاف الدمع ، أدنى ذبول الوجنتين . ومناهي مسلوبة بانقباض متذكِّرةً امّها وأبيها اللذين رحلا منذ عقود متلاشية الملامح من تواليات الذاكرة . تذكّرت أخاها كريم ورحيلَه الذي أسقطها في هوّة الضياع لأشهر متهافتة .

كادت تنفجر مانحةً العنيين شوطاً من اهدار الدمع ، وربّما وصلة نحيب خافت عندما سمعت همهمة وفيق سابقةً اغلق الباب عند الدخول ، تاركاً خلفه الشارع وصدى خطاه (مع أنَّ خطاه لا تترك صدى ، تيمناً بعدم الثقة المقرونة بانعدام الآمان ؛ ويقينه بخطورة التأخر ليلاً) .. ويدخل بشعور مَن نهلَ الارتياح بعدما حصدَ قشَّ الثرثرة بجهد آلية الفكوك وتطاول الألسن وسحب دخان السجائر أو قرقرة الأراجيل . " لا تخلق هذه المقاهي غير الصداع تنسحق تحت سطوته " . يقول يخاطب الهواء . ولا ندري انّه يخاطب مناهي التي رآها تدلي برأسها من وسط محجّر السطح .. يسألها : " أكلكم فوق.. هل جاء بشير ؟ .. وأنتِ ألم تنمي ؟ كأنَّكِ ننكال ! ."

تقول : ها أنا قادمة _ ولنفسِها _ لا يكف هذا الرجل عن العوم في سحر أهل سومر وخرائبِهم . متى يفكّ أولئك الموتى عقدتَه ؟!"

عندما تركَتها آخر درجة هابطة واستقبلها الحوش استطاعت مشاهدته يتربص كَمَن يتعبَّد غارقاً في رغوة السحر أمام هيئة الاختام المركونة على الرف المتكىء جوار منضدته أفرشة لم تستعمل أو ربّما جاهزة للبيع في أقرب نوبة حمّى حصارية .. تقف وراء الطبّاخ أو أمامه وتنده : هل أقلّي لكَ شرائح باذنجان ؛ مع أن السمن سينتهي بعد ثلاثة أقراص ؟ فتسمع : لا داعي . لقد تعشّيت بانتهاء مجلس فاتحة الشيخ ناظم . مات هذا المسكين ولم يغذَّ عينيه بمرأى ولده العائد من الأسر أربعة عشر عاماً . ماذا سيجد ذلك النكد الحظ لو عاد ؟ .. هذا إنْ عادَ حقّاً ! ماتت الأم ، وطلّقته الزوجة . وها هوَ الأب يرحل محمّلاً بشوق الرؤية .

تنشج مناهي وتنتحب . إنها الفرصة تأتيها موشّاة بأعذار اطلاق الدمع والبكاء كما تريد لتفريغ أوعية الحزن .. يندم الزوج ؛ يعاتب النفس على فتح الحديث فيعمل على تجاوزه بالنظر إلى نهاية السهم المُعَد للاطلاق من القوس المتوتر / أسفل الختم الاسطواني / فوق مستطيل الطين المفخور المحفور برؤوس مسامير متشابهة ، يتابع توجهه ثم تقف العينان بطريقة التحديق المُركَّز على مِعزى لا تتحسّب انبثاق مخلب المنيّة .

في الصباح قبل الألم حفنة صبية يخلعون ثياب الضحى ويلجون النهر . الشمس تكوِّن من ثيابهم تكوّرات بهيئة قنافذ محنَّطة .. يقول أحدُهم وقد قطع الماء ساقيه : كانَ علينا أن نضع أحجاراً فوق الثياب لئلاّ يأخذها الهواء ويلقي بها إلى النهر .. يرد أصغرُهم يخاطبه لوماً لا رجاءً : افعل ذلك بنفسك . أنت لم تدخل الماء بعد . الثلاثة لم يساهموا في الكلام بسبب انهماكهم بلعبة الغوص والانتفاض .

ماء الضحى بارد ؛ يستدعي الحركة لتعادل حرارة الجسم وأحكام التكيّف . ذلك جعلَ الأول يستعيد ساقيه ويخرج . يجمع الثياب ويلقي بصخرة مرمرية فوقها بينما المارّة هناك يستظلّون بشريط فيء خاثر تجود به حيطان البيوت المتلاصقة _ حتى المطعونة بخدوش وتحفّرات ما تم قبل أعوام _ تراهم نجاة الواقفة خلف النافذة يمرّون بمحاذاتها . أفواههم تتحاور

معلنةً آخر الوقائع وحدوث المستجدّات . ونسيمة ، بائعة الرمّان من وراء سلال الخوص المحيطة / على الارض أسفل شجرة الكالبتوس ترنو إلى جانبي الشارع باسلوب الالتفات غير المنظَّم لأنَّ نظرها يسلبها هروباً إلى النافذة لمطالعة نجاة .. الالتفات المتعاقب يأتي نتيجة الترجّي بـ(لعلَّ) الصغار يدنون ويبتاعون .

الصغار يمرّون ولا يقفون . لهذا طفقت تستعيض عن الفراغ بالنظر والتسمّع لأحاديث الأفواه . رجل يقول / يكلّم صاحبه بأنّه باع جهاز التلفزيون الوحيد في بيته ، ويعدهُ الآن ببيع أبواب البيت الداخلية إنْ تواصل الحال هكذا (ومؤكَّدا سيستمر الحال وهو أدرى .) . يقول رجلٌ ثانٍ سمع تفصيلاً أخبار تقرير منظمة الصحة العالمية عن أنَّ أطفال العراق وشيوخه يموتون سبباً لنقص الدواء لا لاستفحال السمنة جرّاء التخمة بينما يتوالى الحديث ولكن من مارٍّ جاء بعدهم يفوه لصاحبٍ ينصت : التدرن يستعيد عافيته في مسالك رئات النساء العراقيات .. ومن آخر سمعته مهموماً بآلام آخرين مُعلناً دهشةً تسكب حقداً عن استمرار اكتشاف مقابر جماعية احتوتها أرض البوسنة والهرسك اعتماداً على شهادات الذين أصابهم الخرسُ المؤقَّت بفعلِ هولِ الفضائع والصدمات .. انفجار طائرة ركّاب مدنية تهاوت حطاماً وابتلعها المحيط ، وأعتُمِد السبب افتراضاً وجود قنبلة بحجم ساعةِ يدٍ نسائية .. تصوَّر السهولة واليسر في انتاج الشر . كلُّ شيءٍ صار يحدث بيسر . نحن على أعتاب القرن الواحد والعشرين .

تتيسّر متطلّبات الخارج بينما تتعسَّر تخوم الداخل تنائياً عن زمن غاندي يوم كان يغرينا بتواضع الحركات كتعبير عن ازالةِ الواو من بين السماء والأرض ، دلالة حذف الهوَّة . والعنزة تسير على موسيقى منح شعرها شريطاً من قماش يُنتَف لينجز صورةً كدعايةٍ حائزةٍ على جائزةِ أفضل تعليق للنحول . وليس لغاندي علاقة بابنِ ماجد سوى أنَّ " فاسكو دي جاما " قال كما أعتقد أنَّ حب الاستطلاع من مهام الذينَ لم يمارسوا مهنة النظر من قَبل . لأنَّ النظرَ وسيلةٌ للمسِ الأشياء بتعبير كتّاب قصيدة نثر هذه الأيام .

ومع أنَّ العادة نتاج الرغبة ومخاض التكرار دون الاعتماد على جزئيات الزمن إنْ كان صباحاً أو مساءً / قيلولةً أو هزيعاً إلاّ نَّ نجاة صبيّة لا تحتمل غياب الأب عن البيت فتفضِّل لقاءه في دائرةِ عمله لاسيما والنهارات الصيفية طويلة داخل متاهاة العطلة الصيفية ، وسط تمادي الفراغ المديد . لهذا فضَّلت . والتفضيل قادَ إلى العادة المتمثلة بزيارة الأب .

الشارع يضج بالاقدام الصغيرة . تزاحمها أقدام مَن هبّوا على غير المألوف لملء فضول العين وشحذ اللسان للأحاديث القادمة . ومركز الشرطة تنتشر عند مدلفهِ بنادقُ تزيد عن المعتاد اليومي .. بنادقٌ لم تعد لها قدرة الصراخ لكثر ما أُمسكت من قبضات متفاوتة لأكفٍّ تبادلت دورياً مهمّات الحراسة المتعاقبة ساعتان تتبعها ساعتان . ويوم باثنتي عشر ساعتين . وبهيجة تقول : أجّلي ذهابَك اليوم ، لإنَّ أباكِ لا بدَّ منشغل .. من أين اجتمعت كل هذه البلوى للناس ؟! .. دفعات / دفعات _ وتقصد جموع السجناء _ متى ستمتلىء هذه النقرة _ وتقصد نقرة السلمان _ ؟! .. نجاة تقفُ والباب خلفها . الناس بطريقة الهمهمة أو التمتمة أو الالتفات . يتوالد سؤال ثم سؤال ، ثم سؤال .. أسئلة / أسئلة / أسئلة تتزاحم ؛ واسماعيل يستفهم عامله الذي جاء مسرعاً يطرق الباب فيلتقيه خارجاً توّاً :

_ " هل بعتَ شاياً وفيراً ؟ "

_ " لا .. لا .. شربوا ماءً كثيراً . كانوا عطاشى يقولون أنهم لم يُسقَوا ماءً منذ الأمس . أعدادُهم لا تصدَّق . " .

نجاة تتابعُ واسماعيل يقترب : " هل تأتين معي إلى أبيك ؟ " فتجيبه بهيجة من الداخل بكلامٍ دلالته الرفض بعد الازدحام وضراوة الحشد المتكاثف مع سخونة لحظات دنو الظهيرة .

وكان الأب منهمكاً بعملٍ يخص السيارات الكبيرة ذات الشبك الكامل وهي تلفظ أعداداً تتزاحم بسبب تعدّيتها ، مقادةً إلى ردِّهات السجن الثلاث مزجوجة مع السجناء ذوي التهم المموَّهة بالشذوذ والجرائم الكبرى . أدركّ عدمَ انتهائه مع انتهاء الدوام لأنَّ كثافة العدد تحتاج إلى كثافة الوقت المطلوب لعملية التسليم والاستلام .

لم تكن الجدّة سميعة تدري ما يدور في الشارع لأنها كانت داخل الكوخ المحتشد بالظلام . تصيح : عريان ! يا عريان . هل تسمعني ؟ على اعتبار أنَّ ابن ابنتها سيهب لندائها قائلاً ، ماذا تأمرين ، يا جدتي ؟ . لكنها جوبهت بـ" ماذا تريدين ؟! .. ألا تعرفين أنني مشغول ؟!

يشحذ سكيناً صدئة بصخرة خشنة يجرب ادخالها في غمد من خشب ثم يستلها سريعاً طاعنا الهواء بحركةٍ تخترق البغتة . (نَفور ومُتمَرد .. غيور ويضمرُ اللون الرمادي مالئاً الصدر أو الرأس أو أي مكان يستدعي الإعادة . يرمي الرأس على الوسادة أو يتابع أخاديد وجه الجدّة فتتفتت لديه أزمنة ليلية طويلة . يزرع الحذر على طريق الخطى المطمئنة مسارها . يشتل العينين في سقف الكوخ فيحلم بمعولٍ يصنع من سقوف البيوت الآمنة فناءات للريح والأعاصير . يرى كرةً بيد طفلٍ فيحث كابوساً لجعلها قنبلة تمزق متعة البراءة) . تقول : ماذا تفعل ؟ . ألم تسمع ندائي . أشعر بالعطش ، ومفاصل ركبتي لا تعينني على النهوض . هيّا ! .. تشرع بالزحف مسعينةٍ بعجيزتها الضامرة بلوغاً لمدخل الباب حيث الحِب الفخاري يحتضن ماءً شحيحاً . تهمُّ بشتمه ولعن الساعة التي تركه أبوه بلوى مضافة لبلوى عجزِها عندما أدخل رأسه في جرّة زيجة جديدة بعدما قتل ابنتَّها قهراً ، متّبِعاً طريقة الموت البطيء المبتدىء بالسعال كنوبةٍ سريعة ، ثم دخول حومة السل المُنهِك ، منتهياً بعجز القلب وسكوتِه الأبدي .

هي الآن تركِّز النظر فلا تحظى إلاّ بفراغ الحوش ، وباب الكوخ مواربا . يفاجأ بفراغ الزقاق فيعجب لأولَّ مرة ... رأس حليمة يطل . تسأله : " هل تفرّق الناس؟ " .. يسألها : " أي ناسٍ تقصدين ؟ " .. " الناس المتجمهرين أمام مخفر الشرطة . ألم تكن هناك ؟ " .. " لا .. لا .. لم أكن هناك . كنت هنا أشحذ السكين ." .. تسأله باستغراب : " أي سكّين تقصد ؟ " . يستدير . لا يجيبها .

يدخل الشارع / يُهاجَم بمنظر الدفق البشري الخائف والحركة المباغتة بالفزع صادرةً بتأثير عصا شرطي يحاول التفريق . حاثّاً القدمين يحشر بدنه بين الأنفاس ، وسط العيون المتطلّعة فضولاً . يخترق الزحام مبصراً صف شرطة تصنع سوراً من بنادق تفصل الحشد عن ساحة مدخل المخفر . يقفز شرطي ملوِّحاً بعصا نافضاً الجميع . طرف العصا يلسع ظهر عريان المستدير للهرب مع الفارّين . يلتفت وبشتيمة صارخة يبصق على الشرطي الذي يُباغَت بفعلةٍ تطاير لها غضبه ودفعه لملاحقة الصبي وامساكه .

سكون ....

المدينة كأنها لفظت الانفاس . والليل أعلن هدوءَه كتعبيرٍ عن ذهول بامتداد سؤال لا يزيد عن كلمة : لماذا ؟! .. اندهاش وهي المدينة النائمة اماسيها على حسرات تنتهي بأنين كتيم . والشجر !! أينما يكون الشجر يترك أوراقه تتهاطل كأنفاس .. نفَساً .. نفَساً بينما الفجر المُضبَّبُ البعيد هاربٌ ؛ والزمن يمسك بتلابيب الهزيع الأول مُعلناً تواصل السكون واستمرارية سيمفونية القهر الدامي .

كل ما يحيط يخنق أسراب أحلام أخطأت التحليق أو تقصّدت الاقتراب هدفاً للذوبان . لم تقدر النجوم على عظم هولها أن تهب بُعداً تفاؤليّاً للوحة المدينة المعلّقة على عارضةِ خرقاء . وفاطمة من على سرير الأرق لا تذكر عن نجاة سوى أنها

تعيش وحيدة بعد افتخار قبل الجسر . تحس بالضجر فتخاطبها حليمة : " اذهبي يا ابنتي إلى بيت نجاة . سلّيها بوجودك وتسلّي . " .

وإلى هناك تذهب !

تُستَقبَلُ بالفرحةِ ورغبةِ دخول البيت . ممارسةُ الاستطلاع يمنحُ الاشياءَ العتيقة هواءً جديداً يُعيد لها بعضاً من طراوة الحياة رُغم الجمود . الجميعُ يتنفسون . يتحركون على هدي العيون المشبّعة بالفضول . تقول نجاة : " هنا كان أبي يفضل الجلوس ! " . ترى أباها جالساً على كرسي ذي مسندين وحشوة نسيجية أمام ثلاثة رفوف تتراصف عليها كتبٌ مُجلّدة ومذهّبة . " عندما يلتفت كريم " ، وتقصد أباها " يميناً يشاهدُ نفسه في المرآة " .. المرآةُ محاطةٌ باطارٍ خشبي بيضوي مطعَّم بتحفيرات ترسم زهوراً متداخلة . تشيرُ إلى خزانةٍ تتماس وسريرٍ عريض : " هنا .. هنا كلُّ ما تملكه أمّي من ملابسَ ومقتنياتٍ . هنا فراشُهما .. هنا ! " . وينقطع الكلامُ بتأثير جفاف اللسان وامتلاء الصدر بالنفَس الخانق وانبثاق العَبرة المحرِّكة لآلة تشغيل الدمع .

من مسوح الغبار المتكدِّس ترفعُ فاطمة عينيها لتلتقيان بوجه نجاة . تراه مومياءَ مُهملة . تعبّرُ عن أسفها فيجيبها فمُ المومياء : هذه حالتي ! كلَّما دخلتُ غرفتهما تعاودني الكآبة وتزدادُ منذ تزوَّجت افتخار . صارت الوحدة أختاً لي تعتاشُ معي ؛ وكل يوم تسلبني بقايا رِضاً في هذه الحياة . ولولا عمّتي مناهي لمتُّ ولم يعرف بي أحد ... تسألُها : " لماذا لم تتزوّجي بشير . كان يمكن لزواجكِ منه أن يُبيد الوحشةَ .. زوجٌ وانشغالات كفيلة بازاحة الفراغات . "

تسألها ولا تدري أنْ لا وجود لخديجة في حياة بشير لكنَّ مناهي هي التي قالت له : " نجاة لا تفكّر بكَ يا ولدي . ولم يمس بالَها أنْ تكون زوجاً لها ؛ فإنْ شئت فاختر ما تريد ؛ وإن أشاء فاجعل خديجة بنت ناصر زوجةً لك . أمُّها صديقةُ عمرٍ ، وأبوها لا أحسبه يعارض . واذا أردنا رأي البنت فبالامكان اقناعها ؛ وستكون حسبَ رأيّ سعيدةً لو فازت بك . اعطني رأيك ودعْ نجاة لسمير ، فعينُها عليه ." .. وبهذا صارت خديجةُ أمّاً لابنتين وولد بعد أربعة أعوام . ووجدت مناهي غب سنين آذاناً لاحاديثها عن وفيق / جدِّهم الذي حذّرهم قبلها من التقرّب للاختام : انها تخلقُ تقشّراتٍ وبثوراً جلدية للذي يمسّها . في باطنها أرواحٌ تتناسل خالقةً لِمن يمسكها لعنةً كلعنةِ الفراعنة ، لأنَّ العديد مَّمن حضروا ونقّبوا أثاروا غضبَ إبنانا فابتلاهم أنليل بحساسية الجلد من النوع الذي يتطلَّب الحك تلو الحك . حك يتفاقم شهوةً كلّما طالت الرغبة .. أتتذكرين يا أمَّ بشير ماذا حلَّ بي بداية عملي مع المنقّبين ؟ ... أم بشير لا تتذكَّر ؛ غير أنها تقول : " نعم .. نعم ! " تأييداً للجد الذي تخشى أن لا يُصدِّقهُ الاحفاد . " لقد تكسّرت يا أولاد أضفار جدتِكم من هرش ظهري ، وبقيتُ سبعةَ أيامٍ أدوف جسمي برمل الشاطىء الساخن ثم أدخل النهر لأصطاد فسحةَ راحةٍ مؤقتة ؛ تتذكر جدَّتُكم هذا . " .. عيون الصغار تلتهم الكلمات ، وافواههم ممرات مفتوحة لولوج الهواء تيارات ، تيارات دلالة الدهشة أو الخوف أو ربّما زحام الاسئلة على تخوم اللسان .

ترمقهم خديجة من خلف قضبان نافذة المطبخ ؛ مُعزِّية حظّاً رماها في جُب عائلةٍ هاجسُها الاحجارُ العتيقة . تدعو بشير / زوجها لإبعاد الصغار وانتشالهم من أقاويل الجد واتفاق الجدة ؛ لكنها تجابه بالزجر لأنّه وهو بشير لم يشبع من سماع أحاديث الأب ... لماذا لم تتزوّجيه ؟ .. وما ردّت نجاة لأنَّ سميراً كان الحُلم البنفسجي الذي وشمَته على خدود النهارات (لوحة لا تضاهيها لوحة الجيوكندا / على حساب أنَّ ملامح " الجيو " هي ذاتها ملامح الرجل الفنان دافنشي كما اكتشفها ممتبِّعو تفاصيل اللعبة / اللوحة .) عاشت معه بين جزئيات عمل البيت ونسائم الطرقات الآيلة إلى المدرسة أو المخفر أو السوق مُرافِقةً لإمّها أو مصاحبةً ندى أو ضحى .

تقول لندى : سنزورهم أنا وأمي في العاصمة بغداد . فتجيبها ضحى : " لا تلاحقي غمامة خادعة . كثيراً ما غدرت مثل هذه الغمامات عيون المتطفّلين لغيثها . لا تثقي بشباب العاصمة . أبناء المدن الصغيرة وديعون قانعون عكس شباب المدن الكبيرة ." فترد بحزم : "ولكن سمير ابن خالتي ! " (يفجّر لهفةً ! ناحتاً قلباً يكتبُ على شغافه : أُحبكِ ، أحبك أبداً .. أبداً أحبّك ... تأخذها شوارعُ العاصمة ؛ تسير إلى جانبه ممنيّةً القلبَ برحلةِ جنونٍ مُرتجاة ؛ مع رغبة استطلاع جغرافية الروح إبحاراً في كيمياء الاكتشاف وتعميقاً لشعور يؤكّد : الخروج الثنائي يعني تكريس الاحساس بحقيقة أنَّ يومَ غدٍ سيصبحُ أمساً . أي من عِداد الذكرى حيث الأمسُ كان يوماً ما أمنية لدى الكثيرين من الآخرين . فنجاة مثلاً جعلت من العاصمة حُلماً ؛ ليس لأنها أمنية بل لأنَّ أمس الذي كان غداً سيكون موعداً للقاء سمير . المكان الذي فيه العاصمة / تماهي المكان بالزمان لانتاج بالونة سعادة سرابية لا تعرف أنَّها ستنفجر كفقاعةٍ رغوية سائرة نحو العُري ، ومتمظهرة مع فكرةِ أمس كان غداً؛ فالعاصمةُ جميلةٌ باحساسِ نجاة بسبب السبع عشرة سنة المنسكبة من ورود الفستان الأصفر ذي الاكمام المنحسرة حيث ارتدته لهذه المناسبة أول مرة .

وقفا أمام واجهة زجاجية لمعرض ملابس وسيع . أعاد اعترافه : أحبك .. أحبك . وكان يمدُّ لساناً أحمرَ ذلك الكلب المُحاط ببدلات ولاّدية خلف العارضة المزججة .

كررَّ يقول بارتباك هذه المرّة : أحبك ! بيدَ أنَّها تشاغلت بالنظر إلى الطبل الكبير ؛ غشاؤه ينتظر نقرة العصا الملوّحة بها يد الكلب المرتفعة . . تشاغلت بالنظر فيما فرَّ قلبُها على غيمة بيضاء وسط سني العقد الثاني تراجعاً صوب الاول .

ما مِن عين تقول لجفنيها انطبقا . ذلك أنَّ تفاعلات فيضِ البهجة تحتّم وجودها الحي تكريساً ريثما تُظهِر نداءات الداخل . أعطني مفازات والحقني بأدوات تشغيل الخيال . دعْ الألوان تتعاقب بانسكابها أو سيحها ثم تمازجاتها . اخلقْ جفنين ينطبقان بناءً على أوامر ضجرِ العين من لوعةِ التحديق ... وكانت الأم تشتبك بحديث الذكريات مع الأخت داخل الغرفة أمام زورقٍ متّجِهٍ صوبَ عمقِ مشهدٍ تعرضُه لوحةٌ جدارية مؤطَّرة ، فيما (هو) و (هي) تهمس له : كفى . كفى.. كأنها تقول لا تفقأ فقاعةَ الحلم ، ألا ترى أنني أُحلّق تحت قبَّتِها القزحية ؟ !

العينان مغمضتان آن الأنامل تتحسَّس ورودَ الفستان ثم تتوقّف عند حواف الدانتيلا المسيَّجة للنهاية الرأسية على ساقيها المصفوفين بفعلِ انتصاب الأريكة . يرمي شِباك أصابعه لاصطياد أناملها البيض . تجسُّ الحرارة ولا تُبدي استجابةً لأنها طيفٌ ليس هنا . وبهيجة تقول : متى تتحقق رغبتُنا ؟ فتردُّ الأخت : ننتظر انتهاءَ طيشِه حتى لا نخطأ في حكمِنا وننتهي إلى عِداء .

تحسب وهي أمّه تصرفاته من باب اللعب ، وكلامه الجاد معها تصنع منه سخريةً تبدأ بالضحك وتنتهي بـ : دعيني أفكّر ، وسأوافيك ... ثم : ألا تعتقدين بأنهما ما زالا صغيرين ؟ هي بِكرك وهو بِكري . هي بكرُ بهيجة . جاء بعدها حميد ثم افتخار ، ثم قال لها القلب قفي .

قالها لبهيجة لأنَّ بهيجةَ بعد افتخار جسدٌ تغزوه السمنة ويداهمه التعرّق اللافت للتساؤل المُريب . يضطر إلى الركون جلوساً عند أقرب لحظة تمنحه فسحة ارتياح ، ودكتور يرفع السمّاعة من أسفل الثدي الأيسر يطلب تخطيطاً للقلب فيخبره الأخير كتابةً على شريط ورقي مكان العلّة ومكمن المجهول ، وضرورة عدم إثقالهِ بما لا قدرة له ولا إجبار . تعاتبه بهيجة وتتضرَّع أن لا يخذلها ، هي التي لم تنهل من ما حولها ، ما يجعلها مُقرَّةً بامتلاء الرئتين هواء يكفي لأنْ تقول : يا دنيا غرّي غيري حيث المرأة جاءت من ضلع البشري الذي حاول مجابهة الردى بالصبر تارةً والعناد أخرى مستعيناً بالرجاء

والتوسّل ؛ لكنه مهما أبدى سيؤول إلى الصمت الابدي . حتى جلجامش لم يكن أشد صبراً من الصابرين وهو يرى إلى صديقه أنكيدو تغزوه الديدان فاتكةً بعينيه العاجّتين بالغابات والانهار . لهذا قدَّمَ رجاءً إلى إينانا نهاية الرحلة الخاسرة ما بعد الاقيانوس أن تهب وفيقاً بعضاً من أوانيها المقدّسة وأختام رعاياها كيما يعيش الاحلام حلماً بعد حلم / بعد حلم / بعد حلم / بعد حلم .. أحلام تليها أحلام حتى لو نضبت أحلام الآخرين فانَّ أحلامه ستبقى سيلا مدراراً أو سيحاً سالكاً .

بهذا المنطق لم يفاجأ بالاحداث مهما عظمت لأنّه يحياها حلماً بعد حلم . أحلام تترى ؛ وصولاً إلى الخاتمة . يدعمه الرأي ملكُ أوروك المنتظر قدومَه منذ خمسين قرناً ؛ يتطلّع بوجوه الداخلين مدينته المسوّرة ، مستفهماً : هل قابلتم وفيقاً ؟ فيأتيه الرد : لم نسمع بهذا الاسم ... آنذاك يدرك أن ثمّة أحلاماً ما زالت في جِرار الرأس ؛ واينانا تهمس له : " سيأتيك .. سيأتيك ! لمَ العجلة . ذلك أنَّ الجميع يأتون – بهيجة ستأتي أيضاً ، ويلحقها كريم .

ووفيق يبقى يقص حكاية الحلم أو حلم الحكاية المجسّدة حقيقة استحالة بيتٍ عامرٍ وبهيج إلى لجّة خراب أرعن . واذا سئِلَ كيف يحصل ذلك ؛ يفوه : هو الحلم .. ألم تراودكم الأحلام ؟ فيسمع : نعم .. نعم ! الأحلام وفيرة .. ومطمئِناً يفوه : هذا واحدٌ منها . انتظروا القـ..ادمـ..ات . بلايين الذين ماتو ولم يتعطّفوا علينا . لم يعد أحدٌ ليقص رحلةَ ما بعد العبور مع أنَّ " الناس نيام حتى إذا ماتوا استيقظوا " .. أتراهم يستبدلونَ قلوباً لا تمت لقلوبنا حالما تطأ وهي قلوبهم تخوم الضفة الأخرى !؟

كانت مناهي حزينة / تخشى الفجيعة جرّاء الفضيحة . تتمنى الباب مغلقاً أبداً / أبداً . لا أحد يطرقها ؛ مفكّرةً بالنتائج ، غير مهتمةً بالاسباب على نقيض المتشبّثين بها وناسين الحرائق .

تمسك السكّين وتقطّع الروح كوارثَ وصدمات / هواجسَ وتوجّسات / كوابيس وضنوناً / لوعةً واحتراقات / هلعاً وجزعاً / لهباً وشظايا . لا تريد لوفيق أن يعرف ، ولا بشير وزوجته ، ولا الحارة جميعاً . لكنها لا تدري كيف تضع الحلول ليكون مفعولُها عبورَ المحنة بأقل الخسائر . يتبينُها وفيق مطليةً بالشحوب . معه وليست معه . يسألها فتندفع دون سيطرة :

_ نجاة !

_ ما بها ؟

_ مسكينة ؛ خشيتي أن تموت .

يهتف بها : _ أمريضة ؟.. اعرضيها على طبيب ولا تتركينها .

تلجم نفسَها متظاهرةً بالتخفيف . ينشغل عنها فيسوّرها الارتياح .. تتساءل : إلى متى أظل غارقة في الخوف ، يا ربّي !؟

وهي تتذكّر لحظات العتاب المحنّاة بالتعنيف ، المنتهية بالخيبة ، تقدّمه بمرارة لحميد طبعاً ؛ فلا يرد إلا باسلوب البلاهة على غرار : " لا أستطيع أخذها ، يا عمّتي ، لأنَّ فائزة لا توافق على سكنها معنا " .. أو " قلتُ لها بيعي البيت وأعطني حصّتي " .. أو " تزّوجي كائناً مَن يكون . المهم زواج وترك البيت ليأخذ كل منّا حقّه . " ... واذ يشتد تعنيفُها يترك أصابعَهُ تفرك عينيه ثم أنفه ، ثم تنزل لتمارس حك الرقبة تغلغلاً ما بين الكتفين دلالة عدم الاقتناع أو رفض اللوم الشبيه بماءٍ بارد ينهال على يافوخه في صباح يومٍ زمهريري .

وهي نجاة تشعر بثقل الظهيرة وجهد العين بسبب كون الحرارة تغمر الحوش وشدّة الضوء القادم مفترشاً تراب الأرض والحيطان والشقوق والزوايا والفضاءات . تسمع من خلف أحد الجدران صوت تأفف يطلقه أبو فاطمة آن دخوله البيت . يصيح ، ينادي حليمة : آتني بثوبٍ نظيف ، أغرقني العرق ، هل الحمّام فارغ أم فاطمة تستحم كالعادة ؟ .. إففففففف ! ..

ونجاة هي الاخرى كما هُم يُغرقُها العرق وتستبيحُها سمومُ الهواء ؛ والألمُ أُبريٌّ التأثير . تتجنَّبه بمحاولة اغتراف شهيق دفين فتزداد كثافة الأبر نهشاً بينما الألم يوسّع من جنباته . يخلق فوضى التعرّق من الجسد الساخن . كتلة فائرة تحاول تذليل ألسنتها بجرعة ماء تسعى لاغترافها من الحنفية فتسمع صوت احتكاك شيء ما تحت الباب تهرع بناءً على نداء المعدة الخاوية . تسحب صينيّةً دفعتها مناهي وانسحبت / تسحبها الحالمة ولم ترَ البنطالين اللذين مرّا خلل شريط الضوء الافقي عند حافة الباب نزولاً وتراصف البلاطات .

كانا ونقصد البنطالين أو طارقاً والصديق قد قطعا الدرب بين مركز الشرطة والجامع ثلاث مرّات على أمل انفتاح الباب الذي يخفي وراءه فاطمة . يقول لصديقه : لا بدَّ أن ترد أو على الاقل تخرج . ويعني فاطمة لأنَّ فاطمة عملت على تبديد بذرة اللهفة في سيح الهجران ، مستعيضةً عن الخروج أو الكتابة باضرام المضارب كتعبير عن قلق يراودها تمثيلاً بمعرفة حليمة _ كاحتمال متوقَّع _ حل رموز اللغة السرية ونشرها أمام غضب الأب . حينها ستفقد المفردات المتدثّرة بخضيب الود على ورق القصاصات التي نفّذ فكرتها طارق ، مستعيناً برأي الصديق مقترِح دربَ المدرسة فصلاً أولياً لانطلاق المغامرة وطريقة مثلى لايصال عبوات اللهفة (صباح الأمس المسبوق بوضع الخطط واستقراء الاحتمالات على الوسادة بعد انتهاء آخر فقرة من برامج التلفاز حدث ما يلي : رفع طارق رأسه مستديراً فأبصرها تتعثّر خلفه ؛ والطريق المفتوح باتجاه المدرسة . خفق القلب وانقطعت علاقتُه بالكف وهي تندس في جيب البنطلون ليُظهر شيئاً أبيض مطويّاً باستطالة تصل حدَّ تشبيهها بغلاف أحد اللبانات المستحبة لدى الاطفال قبل الكبار .)

(هو) أمامها يخطو متقدماً بطريقة المشي المتلعثم .

(هي) تبطىء باسلوب الخجل الحيي ..

(هو) يرمي المستطيل الابيض ويسرع . خطوات ويستدير داخلاً زقاقاً يعلن منحه الحرية وسحب الانفاس . يقف يرقُبُها .

(هي) تمر ولا تستدير لانعطافة الزقاق .. قلِقاً يعود ، فلا يجد الشيء في مكانِ الرمي . يتحسسّ أنفاساً غير أنفاسِه ، لكنَّ الصديق يخبره وقت العودة : " ابصرتُها تنحني . لا أدري هل رفعت حجراً لتطبع ختمَ غضبِها على جبهتك أم تناولت الورقة ؟ " .. يقول : " لم أجدها ! ".. " اذاً ! " .. يخاطبُه الصديق " اطمئن ؛ هي الآن تقرأها . " .

وهي تخشى الأم ؛ لأنَّ حليمة تطالعها هذه الايام باهتمام ، وربّما بترقّب . قد تكتشف ؛ فيحدث ما يلي : الأبُ يقرر فصلَ الطالبةِ فاطمة منصور من المدرسة ويعلن جدرانَ البيت بشيئياتِه سجناً ؛ مع الاحتقارات الشاقّة مِن مثل كنس البيت / غسل الصحون / تقليص العطف / حجب الثقة ، ثم طرد الصديقات وهنَّ يواجهنه بـ" كيف حالك يا عم ؟ " عند الباب قبل الدخول .

بعد حصصٍ ثقيلة تبرح المدرسة وتأتي . خيط فيروزي يتدلى من باب الاسرار . وحدُه حبُّ الاستطلاع يجوبُ طُرقات الروح فيما القلبُ على رفيفِ ندى اللهفة يطالع مَقدم اللحظات . لحظة مد الكف إلى كتاب الجغرافية / لحظة الصعود إلى سطح الدار عصراً / لحظة اقرأي يا عين ، وانشرحي يا نفس / وأخيراً لحظة الرد على حليمة عندما تصيح : فاطمة ، أين أنتِ ؟ .. (أنا هنا روحٌ شارد ، وجبلٌ من ركامٍ شوق . وأنتِ يدُ الملائكة تمرّين أصابعَكِ على ترابِ ضياعي فتخلقين وجودي !!) .. وتستمر الكلمات تقرأ نفسها بتوهّجٍ هسيس لترسم طارقاً بأنامل تكتب : (" أنا " افرش ارتوائي على ابتهاجات المكان وشساعات التخيّل . " أنتِ " ارتوِ فيضاً من انبهارات صخب العصافير .) .

ملأى قوارير ساعات العصر ، وشجرة التين المتهدلة بعض أغصانها من وراء حائط كريم تقاسم شرود البنت فاطمة ساعة الفتنة والقراءة للمرّة التي تتجاوز الضجر خلل استدارات ثمارها وميلانها باتجاه الاحمرار . يقول : (أنتِ بريقُ حبشية تحت انبثاقِ أنوارٍ سماوية ضاجّة . وأنا مبتهلٌ أُصلّي بفيض انبهاري ؛ يا لسماركِ الجميل !) .

الليل يأتي طارقاً الباب بنقرات اصابع الغروب الرطيب ؛ قائلاً أنا الليل . تكتئب نجاة لأن أنا الليل لديها يعني " أنا عريان" . ذلك أن عرياناً مغارةٌ عتيمة لمشهدٍ من مَشاهد المأساة المتراكمة . وجه كانت تخشاه بقبحِه القميء وقسماته الفضّة قبل أن تتشظّى الصرخة كردّة فعلٍ لانشطار الجسر أو كيقين الناظرين لعدم جدوى العودة .. عودة الكلام المركَّب بتسلسل يحكمه المنطق وتبعثه الاثارة بعد أنْ ملأت انفاسُه العدائية المتوحشة صدرَ الغرفة ... تدعوها النافذة لمنحِها هواءً ليلياً واشراقات ضئيلة من بريق الطرق . تستعد للذهاب مع ندى لمشاهدة فلم المساء على الشاشة البيضاء لأنَّ عم ندى الذي مات قبل ابتداء الحرب الأخيرة بعامين كان يدير السينما الوحيدة في السماوة ، وأطلَعَ البنت على فيلم وصلَهم مؤخَراً لا بدّ سيعجبها .

ترسم قوامها على بهاء المرآة . يضحك الشَّعَر ناثراً قهقهاته على الكتفين ؛ والثوب المشدود من وسطه يثير متعة النظر قبل ضياعه باستحواذ العباءة آن الخروج . تهمُّ بالاستدارة لاصطياد رد فعل المرآة بلمحةٍ سريعة من ضياء آخر لحظات النهار ؛ لكنها تصطدم بتحية الصديقة ندى واستقبال بهيجة لها . ثم تفاجأ بضحى تدخل ، مع أنها لا تتوقع الحضور لمرافقتهما .

يجمعهنَّ " اللوج " خلف صفوف الغارقين في الظلمة ؛ المتصالبة انظارهم على الشاشة الجدارية البيضاء تتوامض على سيحها حركات بشرية تحت أقواس النجوم .. يبتسم (كلارك كيبل) وهو يروّض (فيفان لي) الجنوبية المغرمة بهذا الشمالي الجنتلمان عبر رواية كتبتها " مركريت ميتشل " الامريكية التي لم تكتب غيرها لأنَّ العمل كُتب بقصد تقطيع الورق ورميه نثاراً لا لغرض تحويله صوراً لأناس يحيون على ايقاع حركة القدر وتقلبات الزمان .. في العودة تقف على الضد من ندى وضحى بعدما صرّحا بتعنيف (لي) لممارستها ذلّة النفس أمام (كيبل) الذي وجدته متجبراً بينما نجاة المراهقة الشغوف ترى فيه (سمير) . رددت متمتمةً : سمير ! سمير ! فسمعت نداءات علي سلطان على لسان رجل الكاسيت : " يا نائمين ؛ كيف المنام يطيبُ " أدركت انتصاف الليل بعيداً عن ذكرى الأمس البعيد ؛ والمصباح الأحمر يفشي لها آخر زبائن الكازينو . يمر سربُ كلاب باتجاه المستشفى حيث غرفة المخلّفات (في أقصى المكان / بمحاذاة البستان النائم على وسادة العتمة وديجورية الساعات المتهالكة) : كلب أسود مبقّع بشرائح بيض ؛ تتبعه كلبة شهباء وثلاثة يقارنها اللون لولا سيقانهم المطلية بسواد يشبه سواد الأب .. ولرؤية الهرولة الكلبية تفرُّ قطّةٌ سابقةً تصفير الحارس المدفوع بحذر مقصود يُعلم الآخرين بوجودِه . توقف اسفل شلالات الضوء الباهت فبدا مع العمود خطّين شاقوليين متوازيين .. التفت الكلب صارفاً لحظة ابصر بحيزها الحارس يصيخ ؛ واستمر يتقدّم العائلة متأثراً بالرائحة السابحة في الهواء خلف المستشفى .. صافرة حادة شقّت صمت الطريق / توقف الكلب والعائلة / دخل فتحةً احدثها جدارُ المستشفى لنفسه ، يتبعه السرب دخولاً حتى اجتياز حارس الصافرة الأخيرة باتجاه حارس الشارع الفرعي السابح بصفرة الضوء .

يسمع الكلب حوار رجل مع رجل فيدفع الرأس عبر الفتحة ، ويخرج متبوعاً بهم . تشعر بالوحشة وهي نجاة تتمنّى الإلفة / تتّقد النفس / تهيج الذكرى / تطبق الاجفان فيقترب النهر .. تترك الدار ؛ وبقفزة ريم أو تحليق فراشة يصير الشارع وراءها بينما ندى الرمل يُداس بالقدمين العاريتين يصبح العري آناً ولادياً . سعادة أتمّت بزوغها واستعدت لاستحالةٍ بهيئة جذوة لها حقُّ التوهّج ، ومع هفهفة الثوب الفضفاض يعلو الركبتين / يستفز الحدقتين . يصعد سؤال بنغمة الاندهاش

ممزوجاً بومضة النشوة المائية عن سر ارتدائه . عن كيف حصلت عليه ؛ ومن أين جاءها وهي تعرف أن لا ثوب لديها بهذا القِصَر ، وتلك الخفّة . لكن صف اشجار النخيل البعيدة ، المتاخمة لشجر صفصاف كثيف الدكنة ؛ المتعشّق للقاء كلّما نأت المسافة واقتربت حد الافق يتبدد السؤال ويسرقها إلى مطالعة استدارة الشمس وهي تؤدي طقسها اليومي في البزوغ والارتفاع . رعشةٌ مجفلة وماءُ جرفٍ مستّه أناملُ الفجر الباردة هما ما تحسّستاه القدمان لحظةَ التَّماس .. تخلع الثوب ؛ تكوّمه حذاء استدارةٍ بيضاء لحجر اعتاد صغار ساعات النهار تجميع أثوابهم عنده قبل التعمّد بالماء .. لأجل امتلاء الردفين / نضارة الساقين أفردَ النهر ذراعيه ؛ لكنها قبل الولوج تأمّلت نفسَها ... تقول هامسةً لموجةٍ دنت برفاهةٍ وتشظّت عند تخوم القدمين الغاطستين : أحقّاً صرتُ فتاةً ناهدة شأن الاخريات ؟! . زغردة عصافير تطلقها كثافة أشجار الكالبتوس باتجاهها . رفيف أعلى الرأس ، وزحام زقزقة وعبق محيط سحري ، واحساس بلحظة ارتفاع منبثقة – تقول – وأنا في كرنفال الضفة تناهى صوت بهيجة – هكذا تقول – " يا ندى ! " .. "أمّي ؛ أمي آه ! ". صوتها يدعوني . صحتُ مستفهمةً فلم يصلني الرد . كنتُ محاصرةً بكلِّ شيء : النهر / الرمل / الضجيج / الهفهفة / شهد الرواء / نهوض الشمس / صوت الأم / تهافت الموج الغافي / زغاريد الروح المتفاقمة / اعتلاج المشاعر المتجيشة / أجنحة فراشات برفيف رذاذي / نداءات مخلوقات طفلية برجاءٍ رحيقي عارم / فيض بهجة غامرة لها دفقات رحيل وئيدٍ ؛ وبهيجة تهتف بي أنْ أنزل . وأنا أقول : " أنا هنا لستُ طائرة فأين أنزل ! " .. " انزلي ! " أسمع صدى النداء .. ولكن أين ؟! .. وهذا الضجيج ؛ وتلك العصافير ؛ وقدماي الحافيتان المتصمغتان في الرمل .. أين أنزل ؟! . وأنا عارية ..ألا تنظرين ؟! .. ولكن أين أنتِ .. بهيجة / أمي المنادية .. تقول بهيجة : " انزلي ؛ يا أبنتي. ألا ترين الشمس ارتفعت . " .. " أوه ؛ الشمس ! ما لكِ بهيجة ! انظري ما زالت تتخفّى وراء امّهات النخيل ." .. " انزلي ، يا ابنتي . أبوكِ بانتظارك . " .. " تقصدينَ كريماً ؛ أين هو ؟.. ثم أين أنتِ . ألم تسمعي الضجيج ؟ .. اسكتي ! كفّي يا عصافير . اطلبي منهم يا شجرة الكالبتوس الظليلة . اطلبي منهم التوقف ." .. " انزلي ، يا ابنتي ." .. تقول نجاة : كنتُ يا ندى أصرخُ بها . أصرخ بالعصافير وليس بأمي لتتوقّف ريثما أكلّمها . فما استجابت . ضحكتُ وقتها . ضحكت بكركرةٍ " اسكتي يا عصافير ! " . ضحكتُ " اسكتي ! ما هذا الجنون ؟ " . ضحكتُ وضحكت . صارت ضحكاتي قهقهات .. أتركُ الماء وأبتعد .. أنتشل ثوبي وأعود ركضاً .. غيمة العصافير تلاحقني والبيت يفر . العبق السحري حولي والزقزقة تحجب نداء الأم . بركةُ ماءٍ تواجهني ؛ تسدُّ الدرب . أجد نفسي عارية / مأسورة . مَن ينقذني . رجفة خطيفة تخترقني بغتةً و..... تنفرج الأجفان فيزول الحلم . بيدّ أنَّ نداء أمي هو ما ظلَّ خيطاً يربطني بها .. متكورة والغطاء أسفل السرير .. أنا في سطح الدار ، وأبي يقول " اصعدي إليها " ... الشمس بازغة ؛ ورائحة الشاي تعلو من جوف الحوش .. آ .. إني آتية ؛ انتظروني .. أترك حميداً وافتخاراً نائمين وأنزل .

تُنزِل كفّاً كانت تتكىء على الجدار فتمس حافة الشبّاك .. اختلالُ توازنٍ وارتباكُ قدمين ؛ ودمدمةُ فمٍ ثم تخبّط وسط ظلام الغرفة ؛ يعقبه ارتماء على كرسي يفجّر غباراً جوالاً تستنشقه ؛ مطعونةً بألم تشنجي يشلُّ حركة الساقين ويربكهما .. ولأول مرّة تشعر برطوبةٍ مائية تبلل باطن فخذيها بسائلٍ لزج يلصق ثوبها أسفل عجيزتها .. تتجمّد / تضطرب الحواس ؛ هاربةً بسؤالٍ يبحث عن إجابة .. أرض قفراء تملأهُ السكاكين المنبجسة من ثنيّات الأديم بينما هي حافية ؛ عارية القدمين تتفادى الرؤوس المدببة والجواب تراه بعيداً .. تشوشّ / ارتباك ؛ ماذا لو صرخت للنجدة .. آ .. ما زالت في نظر العيون الهاربة مجنـ..و..نة ؛ لا عتب لصراخها ..(وأنا الروائي أصرخ من هول الموقف .. آه ، يا إلهي ! كيف لي أن أكمل هذه المأساة ؟! إنني أتقطع ألماً) . تزحف أنامل الكف الممتلكة بقايا شجاعة بطريقة الجس أولاً ، ثم اللمس ، ثم الغرق في سائل يكتسح نسيج الثوب / يوسّع رقعة الذهول.

شحيحٌ الضوء الذي يقذف به قلبُ الشارع . لا يسعفها باستنطاق اللون إنْ كان دماً أم ماءً أم بولاً سوى الحرارة التي تعطي يقين السيح والنزول من ثغرة تعطّلت آلية حواسها .. لا باعث / لا استلام / لا رد . تقادم تشنج يأتي كسرعة السهم يجعلها تهتك ستار العتمة بصرخة نافذة تمتصها سوح الجدران ومسافات الغبار المتوسّد لمكونات الغرفة فيما تصلها صافرة رجل الحراسة وهو يُعلم أقرانه الحرّاس بمتفرقات الأماكن عن بدء نوبته .

تنهض فيزداد التصاق الثوب بفخذيها .

تعود لها حاسةٌ تخبرها بسيلين خيطيين يصلان باطن الركبتين .. تدفع بطنها كخطوة لاندفاع الجسد مطليةً جدران الحوش بصرخات مشنوقة تقطر رعباً لأنَّ الجدران كانت تعلّق مسوخاً فاحّة وغيلان هادرة وسعالى تفتح أشداقاً للالتهام بين الزوايا مع نشاز أزيز الصراصير مثير نوازع الكوابيس ، مُعيداً تجسيد الموت الذي تخافه مُذ رأته عملاقاً يسحق بنعليه – بكل قسوة وجدارة – قِطعاً من قلبها وذاكرتها ووجودها ..... تُعاد تلك الليلة ساعةَ النهر على هدير الظلام يسترخي ، مانحاً بضعةَ مصابيح تُدربك على ظهره . تنظر إليه وليس غير شبح عمود يتمايل على نسيج الرمل .. عبدُ الشط أم حراك كاذب ، أم أحد قوائم الجسد الذي كان جسراً ... تسأل العينين ولا تغمر صفحة الفكر غير علامات استفهام منشطرة . يغيب أدنى العمود الصخري الآتي باتجاه الطريق . قليلاً وحافةُ الرصيف تستحيل افقاً يُظهر فروةَ الرأس بدءً ، ثم الوجه ؛ يتلوه الجذع المتمايل .

هنا تدوّن صفحةُ الرؤية اسم " عريان " .

تنسحبُ بطريقة الهلع الغريزي وليس باسلوب الخشية من أن يراها ، لأنّه لن يراها الآن بسبب رحمة الظلمة التي تغيبها عن الرؤية . والنافذة الملتصقة بالحائط تمنع على القادم خصوصاً اذا كان عريانا بعد النصف ؛ وأقصد نصف القارورة . وهي تخاف عريانا ؛ ذاك الذي نما شبحاً مزعجاً منذ صباه .... يأتي فيصيح بحميد : تعال ! . يأتي حميد ولا يصيح . يلطمه على وجهه دونما سبب . يبكي حميد ، ولا يعرف لماذا . صرخة اللطمة على الخد كافية لإخافة الصّبية الواقفين بتبعثر هنا وأعتقد هناك بعد تركهم الكرة تضرب رؤوس الأحجار خارج حدود الهدف المُصطنع .. يقول : كيف أمر وأنتم تلعبون ؟! ألا تعرفون أنني عريان ؟!.. وإلى حميد : هذه المرّة لطمتك على وجهك ؛ المرة القادمة أصنع منك كرة ... يتدلى وجهُها ، وجهُ نجاة من شق الباب . تصرخ : لماذا تضرب أخي ؟ .. يلتفت الضارب ، لا صقاً عينيه في المثلثات الصفر والخضر والزرق السابحة في فضاء ثوبها القطني ذي الخلفية البيضاء .. يبتسم بمكرٍ ويقول بما يشبه المماطلة ؛ الوجه الآخر لسخرية : هذا أخوكِ ؟! .. هنيهة وتسحب الصدور الصغيرة هواءَ الشهيق بعدما تنده بهم الكرة : تعالوا ؛ خذوني لقد ذهب .

تلفَّتَ وجهُ عريان يميناً باتجاه الجامع ، وشمالاً نحو المستشفى . خلوّاً اكتشف ما حوله فسلك الشارع الممتد أمامه ، وليس على أحدِ جانبيه . طريقٌ اسفلتي يأخذه إلى شرطي المخفر الذارع أربع خطوات عودةً لكابينة الحراسة ، عند الباب الرئيس . دفع القدم اليمنى ، فصدتها اليسرى ، فكاد أن يسقط لحظة ترك الرصيف – تبدّى وقع الجرعة الثقيلة التي افرغها من قاع القارورة – مقرراً النهوض والعودة ؛ حيث الجدّة تطبع انفاسها الشائخة على جِلد الهواء الراكد للكوخ الاثري . قال آن الفم يفوح برائحة جوف القارورة : عليَّ الاستدارة ، آخذاً طريق الجامع لئلا أصطدم بكلمات رافع البندقية وشتائمه . تلقّفه الرصيف المُقابل محتسباً سيقوده إلى الاستدارةِ اليسرى رُغم البُعد المضاعف عن الضلع الطويل من الجدران ذات الابواب الفاصلة بين الزقاق وكوخ الجدّة . الخطوة المتراجعة حدثت من قِبل نجاة . أمّا المتقدمة فكانت له ؛ يتبعها بأخرى ثم أخرى ثم فوجيءَ برأسه يتدلى عند حافة النافذة آن نجاة تفجّر قنابر الخوف حولها مصدرةً صوتاً يجابهه الفم المريل بـ :

ماذا هناك ؟.. أين أنا ! " ... العينان تغرزان منظاريهما خلل مربعات النافذة فيخبرها مربّع تعرض بعض أضلاعه بصورةِ نجاة عائمةً على كثيف عتمة تجهد في امتصاص ذرّات ضوء تفضح وجود الخائفة .

الخائفة كتلة جامدة من أحاسيس معطّلة لمومياء تستدعي التطلّع إليها باهتمام أو برهبة : " لـ ..لـ .. لـ...! " . لا تخافي أنا عريان .. مَن أنتِ ؟ " . يرد الفمُ الحافظُ للسانٍ أعلنَ نفسه خشبة وانتهى إلى لا جواب .. " أنا عريان ! لماذا أنتِ خائفة ؟ ألستِ نجاة ؟" .. " يي..يي.. يي..يي. " .. " قولي نعم ؛ لأني أنا عريان . خذي يدي اليمنى اذا كنتِ غير مصدِّقة .. أنا عريان . " . عريان يخاطب النافذة ولا يرى خلفها غير ظلمة غائرة لأنَّ الخائفةَ فصُّ ملحٍ ذاب . يخاطبها بكلمات الضوء الذي يشبه اسلوب الثعلب ذي العمامة والمسبحة ؛ ذاك الذي رفع شعار التوبة هدفاً لاثبات ذات قرارها وجبة دسمة وغنيمة ناجزة تؤكِّد مقولة الغاية تبرر الوسيلة حيث " ميكافللي " جمع مرّةً ثعالب العالم وألقى حكمتَه خاتمةً لخطبة تحذيرية تثير رعبَ المخادعين المتطلّعين ، من أنَّ الدائرة ستضيق وليس غير الوسائل – مهما تسربلت بالرماد والرياء– محققة الغايات .. غايات الفتك دائماً وليس المهادنة أحياناً ، وإنْ أبدينا المراوغة الزائفة .

يلصق خدّه على خشبِ النافذة . يُدندن عتاباً بشعرٍ غنائي وهبته ايّاه القريحة الكاذبة ؛ متمتماً بأنين يُفاجىء كلباً تشغله أحلام يقظة مفرحة للعثور على عظمٍ مرمي بطريق الخطأ في مغارةٍ لم يدركها بطريقة الشم أُخوانُه الكلاب أو اعداؤه القطط .. يتفجّر نباحاً كاحتجاج عَن بترِ الحلم فيجد عريان نفسه بعد لحظة مسروقة من الشعور يهوي في استدارة مائية عطّرت وجههُ وملابسه برائحة مجاري راكدة ، بعيداً عن نافذة العتاب بزقاقين وصفِّ بيوت .

تعود المرتهبة إلى بحر الظلام ؛ ويعود البيت يتمثّل لُجّة خراب أرعن بحساب الهجران وانتفاء الاقدام المتفاوتة في طبع وجودها على مربعات الطابوق الفرشي . تسمع نباحاً وعواءً ثم طيوراً تفتض وهدة الفضاء بأصوات مبتورة (كثيراً ما كانت مثل هذه الاصوات تثير هواجس بهيجة وتغذّيها بتوجّسات يطليها التشاؤم ، ويرسم أمام عينيها لوحة المأساة والتفكّر قبل الغياب .. غيابها الأبدي بسبب خذلان القلب وعدم ايلائه الثقة) .. تقول متفحصةً وجه الولد حميد : " كيف أنتم بدوني ! " وإلى افتخار :" كيف سيأتيك النوم بعدي ؟! " .

واجهتها رائحة صمت المدينة وهمود البيوت وتخيّل خلو الشارع ونتانة الأزقّة . واجهتها نظرات وجوه الجيران الجامدة وهم يقضون فُتاة الايام تبعثراً . يغالبون وطأة افتقاد الاشياء وتبددّها . أمانيهم تتناقص بترتيب الخيبة المقررة سلفاً بعد الضياع ، شعوراً بأن لا شيء يستحق التفاعل لأجل حصاد الطموح ... لا طموح يغذّي هواء التحدّث عمّا سيفعلون لأنَّ ما سيفعلونه _ وهذا بامتار حساباتهم _ سيؤول نحو ضباب بمثابة سديم لا يدركون ما فيه أو بعده ، فمنذ أقصى الطموحات وأدنى التكلّم همساً تدانت ضياعاتهم وتدلّت حتى نثيث الغبار السائح الساطع على أرصفة الطرقات أو مساحات التفكُّر .

كانوا يحلمون ولا يفيقون من اوهامهم لتتابعها وتواصلها وتناسلها ؛ أمّا الآن فيفيقون دون أحلامٍ تعطِّر شساعةَ دروبِ الآتي ، أو آمال بمثابةِ تعويضٍ يهبهم نعمةَ القناعةِ عيشاً أو تراضياً ... مررَّت الكف على بشرةِ الوجه المُهاجَم بالورَم والتعرّق والافرازات الدهنية . صباحاً كانت البشرةُ تلتمع عند سقوط شريطِ ضوءٍ شمسي تاركاً احساساً بسخونة السطح _ سطح البشرة طبعاً _ على احتساب أنَّ السطح المطلي بالدهن يمتصُّ الحرارةَ ويختزنها . أمّا الآن فالشعور بالزنوخة هو ما يستبدل لهيبَ النهار برائحة تستبيح بنتانتِها محيطَ الجسد المُبتلى . وهي نجاة لا تحس بالتأثير بقدر ما يثير تذمرها الاحساس بأنَّ شيئاً يسيل من انطباق ما بين الفخذين . وإذْ تدفع الاصابع بمفهوم الحذر لا تجد غير حمّى تسيح كما السائل الناضح من اسفنجة ممتلئة . ولِلَّيل صفاتُ الاسفنجة ، يمتص ويمتلىء / يمتلىء ويسيح ، لأنَّ الخرق يضيع سواء جاء مرتبكاً من خفقة طير أو صرخة معلول مُهمَل في ردهات المستشفى المجاور ؛ أو انخطاف خفّاش هارب أرعبه بوم

متربّص ، أو كلب جاء عواؤه شكوى لفقدِ المرتجى من عظامٍ مرميةٍ بطريقة السهو على اعتبار أنَّ العظام ، حتى العظام لا تجد لها أثراً في أزبال أحياء ما وراء النهر ؛ ليس بسبب (جنون البقر) مرض أواخر القرن العشرين ، مرعب المتهالكين على التهام اللحوم الحمراء وجاعلهم يضربون الاعشار بالالاف وصولاً لتدارك بقاء الكروش على بداعة انتفاخها بل خوفاً من الضمور الذي يعني قلة الهيبة وتقهقر الاحترام .

نراها بعين الشفقة مسلوبة لا تفقه حدث الاشياء بينما ترانا بعين اللاادراك . هوامش تسير ينتفي عنها فعل الاقتراب والاستفهام عمّا بها كسؤال موجّه للمحاطة بالابهام ، ثم يتبعه : " ماذا تريدين ؟ " أو " بمَ تحسّين ؟ " مع علمهم أن لا جواب .

عالمها عالم اللاتوافق ، رؤى مشتّتة / شبابيك تطلُّ على انحدارٍ بلا قرار / كهوف سحيقة تؤمُها غيلانٌ شبحية / مسوخٌ متلاصقة بهيامٍ مفترَض . العتمةُ خلالها كومٌ من صفيرٍ أو انينٍ أو تأوّهات تمزجها سخريةٌ مفتعلة .

عندما تسحبها لوامسُ الخارج تنطُّ كالمفزوعة فزع التخيّل امتثالاً حقيقياً يكرّس الواقع الملغَّم بالمجهول (كانت قدُ نذِرت للحزن .. كانت قد تُرِكَت للألم . كان الليل ينزف ألوانه الفحمية يغمر بها هواء البيت فلا تجد فسحة لنسمةٍ ضوئيةٍ تنسفح من دفق النزيف تهبها رغبة الانتباه .) كذلك الخالة ظلّت تلح عليه أن يقترن بابنة الأخت وهي نجاة بعد وفاة الأم ؛ أقصد بهيجة وليست أمّه لأنَّ أمّهُ هي التي تكلّمه الآن وتذكّره باندفاعاته الأولى وتوسلاّته حد تقبيل القدم وعرض استحصال موافقتها والوالد ، ولو بالكسب المحدود المتمثل باعلان خطوبة أولية وتبادل خواتم الزواج المؤمّل / المؤجَّل . وهو سمير يُعلن عبر اللحظات المتوالية الرفض بصوت الصمت ؛ أي السكون دلالة عدم الرضا لا علامة القبول المعروف (سكوتي من رضاي) .. يدخل غرفته ويغلق خلفه الباب ؛ وكثيراً ما يصرخ بوجه الفم الملحاح : كيف أتزوَّج فتاةً بيتية والبنات موظّفات حولي يتهافتن كالفراشات ؟

وتأخذهااللحظات !..

حدائق الغيوم وسط العراء الأزرق تمارس لعبةَ التوسّع والانكماش ؛ ثم تهمي ثمارَها للعالم البشري حبّات من لؤلؤ مائي أو سطوع منثال . أولُ المستفيدين حميد ! يغافلُ بهيجةَ ويخرج . يستعطفُ البابَ أنْ لا تضحك فتكشف نواياه . وهي الباب كاتمةُ النوايا والاسرار وفاضحةُ حميد المتسلل بطريقةِ الهرب الانخطافي آنَ يتركها موارِبةً نسياناً أو تخوّفاً من أنْ تصرخ بهِ حينَ الانغلاق حيثُ بهيجة تتساءل : " مَن ؟ " . وتصيحُ لحميد : " انظر مَن في الخارج . " على افتراض أنّه في الداخل وهي منهمكة بالطبخ أو وراء طست الغسيل . وكافتراضٍ ثانٍ أنَّ الطارق ربّما يكون رجلاً . وإذْ لا تسمعُ الردَّ تدرك أنّه قطعةُ ثلجٍ خلل صهدٍ صيفي ذابَ على الفور وغاب . يحدث فعلُ الغضب باتساعِ فتحة الصراخ فتعرّي الـ ٣٢ ضرساً إلاّ ثلاثة سقطت بالتتابع سَنةَ الحملِ الأول به .

خارجاً .. حميد بطريقةِ نقيق الضفادع يعطي اشارةً للمتخفّين وراءَ الشبابيك أو حول المدافىء .

تنفتح أبوابٌ وتبقى أُخر .

الغيوم في حدائق السماء تُطالع زمرةَ الصغار كنقاطٍ تذوب وتتجمع بعد الظهور ؛ تسمع مِنْ بين توالي خيولِها المائية ذبذبات اصواتِهم الترنّمية (امطري ، ولا تخافين / على عناد العلوجية) ... هناك العلوجية يشوون اكبادَهم على نارِ الغضب كلّما ضحكت الاشجارُ وهي تستحم ؛ وكلّما كشفت الارضُ صدرَها واستنشقت .

يتناولون الكُرةَ احتفاءً ؛ والدربُ يخلعُ عليهم الرغبةَ سعةً وترحاباً ، امتداداً إلى حيث الجسر .

هناك ما قبل الجسر زمنٌ ينبغي العودة إليه . زمنُ استعادة الاسئلة : كيف ولماذا ؛ وإلى متى .. آه .. ماذا أفعل ؛ تقول نجاة ببقايا المدِّ الآتي الذي يسمونه عُمراً واسمّيه هباءً تتلوى نبراته على اوتار الحزن وصولاً لخلقِ نغمِ اليأس حيث السماء تتشرَّب لونَ الرماد لافضةً الصفاء .. لماذا تفعلين هكذا يا سماء ؟ .. ما هذا البرزخ الذي تكوِّنيه دفقاً لرغبتك وليس لرغبات الكون ؟ وأنتَ أيها الرماد : دَعْ سماءنا لنا وخُذْ رمادك لك ... العجب من مثل هذه الاسئلة قالتها مناهي بعد الجسر ؛ وشاركتها بطريقة الانفعال المرير مليحة وقبلها بهيجة تردُّدها ، ثم كريم ، وحتى الناس منذ ازمنة صانعي الاختام والراسمين حكاياهم واحلامهم على جدرانِ الكهوف ، حتى عندما كانت نجاة تجلس عند متكأ رأس الأم قبل أن يغلق الرأسُ بؤرتي النظر الواهنتين وتسمع آخرَ تعثُّرات شفتي الفتحة المليئة بلسانٍ جاف رجاء الاهتمام بحميد وافتخار ضمان بقاء الأب أرملَ على مدى الزمن الغيبي .... وإذْ تدخل مناهي تمارس عضَّ الشفّة السفلى دلالة التأنيب بدعوى لا يجب النحيب أو البكاء أمام المحتضِر تؤديه افتخار وحميد ؛ ونجاة جالسة تستجيب لقرار الداعية بتحويل النحيب صمتاً مع بقاء السيلين ينسابان بدفق الغزارة ؛ وسمير من وراء خديجة وهي أمّه يتابعها بألم . يتساءل بالنظر: أحقّاً ستموت خالتي وهي بكامل ريعها ؟ فتجيبه دموع نجاة : أجل ستموت ، ألا ترى ؟! .. " كلنا سنموت " تشاركهم عينا كريم ، فتصرخ هي : لا .. لا .. ! ويسرع كفّاها لاخراسها لحظة اغلاق الفم ثم احتقان وجهها . تتحسس كفّاً حييةً تمس شعرها فتعرف بحدس القلب كفَّ سمير . تتلقى الاذنان كلاماً يقول :" اهدأي قليلاً أرجوك " ..

أين سمير الآن ؟!

تجهد في جمعِ شتات الملامح المبعثرة فتلتم لا لتكوِّن وجه سمير بل قامة عريان ، فتصرخ بكلِّ الرعب المحتشد في دنياها . رعب موت الام – رحيل الأب الصامت – ابتعاد حميد – زواج افتخار غير المتكافىء – ضجيج الطائرات بألوانها العديدة – تمزّق الجسر – ارتفاع الاشلاء البشرية عشرات الامتار في هواءٍ محايد وفضاءٍ جبان – أنين المدينة وصمتها على خدر الجوع والعِلل ... تصرخُ والليلُ لا يأبه ، نائمٌ / خدِرٌ / لا مبالي بينما عريان في واحدة من عتمات الأمكنة المحاذية للنهر شاهدَ الملحمة السوداء في كلِّ شيء يسمع ولا يأبه . هو والليل صنوان ؛ غارقاً في ثَمل الأخيلة التي سيحيلُها واقعاً . جدرانٌ يجب اختراقُها / دروبٌ ينبغي قطعها ، والنتيجة نهوضٌ متعثّر وقارورةٌ فارغة مرمية إلى النهر، مودَّعة بشتائمٍ واحاسيس حانقة تتوالى مع رذاذ البصاق المندفع من الشفتين المريلتين . يسمع ولا يسمع لأنه اعتاد على رؤية الغِبطة ترقصُ على شُرُفات الملامح المبتهِجة لوجوه الآخرين في حين هو محمّل بالضغينة من الماحول . ينظر والربيع ينث شعاع الانشراح ، يملأ جرار العيون فمن أين له تقبّل ذلك ! ينظرُ والقهقهات المتطايرة تصفعُ مسامعَه فكيف يرتضي الموقف ؟! .. يواربُ أبوابَ دواخلِهِ فتأتيه رائحةُ البغض ذراتٍ جائفةً بتأثير الانفعال الذي تتوافر له . المنبهات – ما أكثرها – يطلق بعضها زفيراً وبعضاً بطريقة الارتداد الذي يسمونه كبتاً . ينقل الخطى مستطلعاً الوجوه فيبصر السخريةَ تلاحقه مع أنّه لا توجد ثمّةَ سخرية تستدعي تجميع العفونة داخله . الكلُّ غاطسٌ في انثيالات اللقاءات والمواعيد ، مُترجمين اختيالَ الربيع صبابات وتعارف وتكرار زيارات قاضيها وشاهدُها النهرُ المُحتفي باحتشادات النخيل . يرى حواراً بين شابٍّ وشابّة فينتفض مُثاراً بالهمس الذي لا يريده .. يدنو مدفوعاً بالفضول ، لكنَّ الصمت الذي يفتعله الاثنان يخذله . (هو) ينظرهما شزراً ..(هما) يبادلانه عطفاً أو شفقةً أو ربّما شيئا ممّا يسمونه لامبالاة .

إذْ يعود إلى البيت أولُّ شيْ يؤدّيه هو ازاحة صندوق ملابس الجدّة ورفع البساط ، ثم اخراج الغمد الخشبي . يمسك قبضةَ السكين / يستلّها بالبريق المفاجىء ، العاكس لخيط الضوء المنشق عبرَ أحد الثقوب الكِثار في سقف الكوخ المتهالك

. يغذيّه البريق ارتياحاً ، مُزيحاً وفيرَ البغض ، راسماً مشاهدَ الجروح الوسيعة بفعل طعنات الآلة التي سيجعل دماءها المتقطّرة غذاءً شافياً لنفسه المشغولة بالانتقام . يتمتم بالوعيد : إنتظرا غدا !! .. ولا ندري ما الذي يضمره الغد .

دائماً / دائماً تأتيها قامة عريان مهتزّة / متمايلة لا بتأثير جفاف الرمل وهشاشته بل بفعل القارورة التي يرميها فارغة إلى النهر معلناً خاتمة الحبك .. الحبك ؛ ابتداءً بالتطبيق . تشهده عموداً ثم جذعاً ، ثم طنطلاً .. وأخيراً عريان !

حتى فاطمة تراودها مثل هذه الرؤى حينما تكررت الصباحات . كانت تجابهه عموداً يرتسم في طريق المدرسة . تارة تشهده عند مبتدىء الجسر نهاية شارعهم ، واخرى يغيب فتفاجأ به لا يبعد كثيراً عن رصيف المدرسة . يخاطبها : أنا طارق مهما تحسبينني . جيوبي امتلأت برسائل الخيبة وأنتِ لا تستجيبين . تتحاشاه متمثلةً سير اللا اهتمام مع اللا سمع مع أن دواخلَها تستحيلُ حديقةً عامّة تؤومها ابتهاجات الربيع ، وتصاخب اغصان اشجارها المزدهية بحوارات ببغاوات أو طيور كناري وعصافير تتبارى في نقر الأغصان تمثيلاً لا واقعاً فيما قدماها تطآن ثيّلاً أخضرَ ما زال الندى يلتصق بحافته الغافية ؛ تتمتم : " ليس بعد . ما زالت للزمان بقية " . وهو جواب عن سؤال فاه به ببغاءُ القلب . تقول ، تكلّمه : " ألا تحسب أن قراءاتي لكلماته هي جزء من وفائي له ؟! .. ألا يُقدِّر هو ذلك ؛ وينتظر ؟! . يقول لصديقِه بعد خطوات من المرارة تمتد من آن دخولها المدرسة إلى السؤال الذي جاء كالصدمة أو كالتوقّع : " ها .. ماذا فعلت ؟" .. " ماذا أفعل ! . هذه البنت ستبدد حياتي وتسرقها همّاً بعد هَم !" .. يسحب من جيبه الرسالة المدوَّنة بساعات القلق الليلي وعواصف صور رسمها . نقول عواصف لأنها لم تكن وهو يصوّرها تسير حسب المبتغى ... يخلق تسلسلاً من صور تملأ فضاءها جدائلٌ شمسية يبتسم لها ثم تعدمُها صورٌ تكسوها الألوان الغيمية فتجهش نفسُهُ بعطسةٍ واحدة ثم تجشّؤ متواصل . يقول فألٌ سيء .. ثم .. لا..لا.. طالما استلمت التي قبلَها ستستلم ما بعدها . " .. " لا تيأس ! " سمع عبارة اطمئنان فاعاد الرسالة إلى جيبه ولم يدرِ مَن تفوَّه بها . الصديق أم صوت القلب لأنهما كانا يعبران الشارع إلى الجانب الثاني .

ومع أنَّ نجاة كانت في أردأ حالتها الخَلقية ؛ ومع أنَّ الاجهاد تفاقم حدَّ التكلّس فأرهق ساقيها إلا أنها استمرت بطريقة احناء الرأس وملىء الفم بثغر الحنفية البرونزية ، ثم اعتمادها على السلوك الغريزي تزيد من حركة الانحناء ، وهذه المرة ليس جانبياً بل جعل الوجه يدنو من ارضيّة الحوض بينما الرأس يتلقّى الانسكاب مرطِّباً ومبللاً كتلةَ الشعر وتداخلاته . تلمسُ طعم الارتياح وتترك الزمنَ المبتور يأخذُ مروره بالتتابع . تسيلُ خيوطُ الماء فاتحةً دروباً على أديم الوجه ثم تلتقي فتتشبّع المساحة . تنهض اليدان فتمارس الاصابع طرطشة الماء وغمر العينين بعد الاغماض . يرتفع الرأس . يتحسّس الكتفان نداوة الماء وتكاثفه . بللٌ يأخذ انتشارُه تضاريس الثديين هابطاً ولوح الكتف خلفيّاً . تصل بعضُ خيوطِ السيلين عجيزتَها . تسأل الهواءَ كي يأتي لتغترفه تعبيراً عن ارتياح أو نشوة ، وهي لا تفقه إن كان الليل يأكل نفسه أم يتراجع ليستطيل ، ذلك أنها نسيت الألم . لكأنها اكتشفت ما حولها نقيضاً للظلمة .. وسريعاً ، سريعاً تخلّت ذاكرتُها عن مرّات القلق التي ترعبُها كتّما نأت بنظراتها خارج نطاق النسيان . فضّلت الجلوس بطريقة الاتّكاء على جذع شجرة التين فأصبحت غرفةُ الاستقبال بمدى النظر الذي لا يبعد غير هنيهات من امتار العودة .

دخلت الغرفةَ وكان سمير سبقها بتقديم القدم اليمنى متبوعة باليسرى / تعابثه خشيةَ فشلِ اللقاء الذي انتظره ساعات ، فقرر الخروج عندما واجهته بهيجة . قالت : اجلسا ! ما لكما خرجتما (وإليه) أنت لست غريباً . عادا ليجلسا متقاربين بفعل شحنة التشجيع التي تأججت . رغوةٌ غمرت أوصاله . على الاريكة الاسفنجية كسرا حفنةَ زهورٍ ملونة وتسببّا في لَي عنق الزرافة المحتفية بقضمِ غصن تهدّلت أوراقه الخضر .

مدَّ لها كفّاً قبل أن يعرض على شاشة النظر جملة الغزل التي انتظرتها نجاة باصابع تتداخل وتطقطق . كانت الاصابع تقصد أحد الفخذين القريب طبعاً ، وهو اليسار لأنها كانت على يمينه .. سمحت له بقدر احتمال عدم التجاز المتبوع بالرفض .. يقول لها : قبلة .. ويقصد الشفتين لا الخد المنتظَر .. تقول : لا ! لا !. الشفتان ترفرفان لا بدافع الرغبة بل بتأثير الخجل . وكانت الكف ارتفعت بأصابعها تتابع رغوة النهد . لكن طقطقة قدور وأوانٍ تجاوزت نطاق السمع المثير للمفاجأة فتراجعت الأعضاء متّخذةً هيئة مَن ينتظر دخول أحد . وإذْ لم يحصل الاحتمال عادَ ليتفتح حديثَ الِّجد ؛ قال : سأضغط على أمّي كي تلين . تردَّ أبي لأنَّ حبّي لكِ ليس كحب الافلام التجارية . وكان يقصد فلم (أبي فوق الشجرة) مفجّر نزوع الشباب آنذاك .. الشباب المندفع للمتعة طبعاً لا للالتزام حتماً .

ما ردّت . وكان الصمت الممطوط آتٍ من نظراته المنتظرة انطباق الشفتين وانفراجهما تبيناً للجواب ؛ لأنّه كان يجهد لنيل ! أي كلام منها .. وكانت الأم تصطدم بحراب انقضاء زمن الصمت المثير لحدس عمل شيء يسيء لابنتها فجاءت تواترات اصطدام الأواني أشد . صعد الدم لوجهه ؛ وطرقت الشرايين أبواب صدغيه . تمتمةٌ بمفرداتِ شتيمةٍ خرجت ، ما فقهتها نجاة نظراً للضربات المتهافتة داخل الصدر باستثناء كلمة " حقيرة " .

حين دنا منها وضاعت جميع الأوراق والأغصان للشجيرات الفاصلة بين الزرافتين المتشابهتين وقرر أن يختطف الأشياء اختطافاً : قبلة شفتين وخطف نهد ، ودس أصابع بين الفخذين وصولاً إلى الداخل لطقطقة وقرقعة تعبيراً عن سقوط مجموعة صحون معدنية أو قدور انتصب ناهضاً نحو الباب الذي واجه خلل مستطيله الأم بهيجة تسأله : لماذا لا تبقى يا ... وهي تدري أن نجاة التي كانت خلفه ترسم وجه الحيرة .. قال : سأخرج وأعود .

رأى ارتفاع الشمس ابتعاداً عن شجرة التين فأدرك لحظات العصر . سمع لغط السابحين في النهر أو اللاعبين كرة الطائرة على الشريط الرملي . " لو تبقى ! " يسمع نجاة الهامسة خلفه ، وهو يدري أنَّ الـ " لو " لا تنفع . فكم من " اللولوات " كتعبير عن التمني تتعثّر عند دكّة الاحباط منكفئةً بطعنات الاغتيال . قال : تلزمني زيارة السوق أو ربّما سأصل السينما وأدخلها . اليست هي كما قلتم تحاذي سكّة القطار قريباً من المحطّة . سأدخل وسأخرج إن لم يعجبني الفلم . أي سأعود مساءً فلا تقلق أمي فهي ما زالت تحسبني أحبو .

لم يأخذ الطريق شمالاً باتجاه الجسر بل عرّجَ أمامه هبوطاً إلى نديف الرمل . أعجبته حركة الأجساد المقطوعة بالماء . أنصاف أجساد عُليا لها أذرع تتقدّم بطريقة التناوب ؛ وكانت نجاة تزيح الستارة لغرض المتابعة . تشاهدهُ فتتمنّى اللحاق به ، كفّاً بكف تحت مظلة أنفاس دقائق ما بعد الغروب . لكن ماذا أفعل – تقول – والمعيقة خلفي لا تشهد البراكين في قمم القلب .. تدخل عليها : لا تتأّي ؛ سأكلّم أختي . أنتِ أفضل له ؛ هو يناسبكِ . جمالك يا ابنتي يبهر الناظرين ؛ وأنا لا أريدك لغيره . لا يمسّكِ إلا من طينتنا .

عينا المستمرة بالتطلّع خارجاً تنتج ما يشبه الدمع ، أو هو الدمع . ولم تلتفت عندما تغلغلت الأصابع في شعرها السارح على ظهرها ، غير أنَّها حدست وجه الأم يتابع قوامها من الخلف اعجاباً وتهللاً .

تلفت على لمسةٍ ناعمة وجسد يحتك بعجيزتها فترى بعين الظلام قطتها ترفع ذَنَبا يمَس ساعدها مصحوباً بمواءِ رجاء يبغي الحنان ؛ وهي نجاة بحاجة لكمٍّ هائل منه . حين شاءت العودة للنظر مطالعة الباب لعلّها تجد سميراً أو بهيجة ، أو أي أحد يشاطرها الهرب . لطمها قفّاز العتمة ، وصافرة الحارس من نقطةٍ بمسافة أمتار عن الهلع يبثها الشارع الخلفي . نسمة أو تيار ، أو هجوم هوائي حوَّل رطوبةَ الثوب إلى دبابيس تغرز رؤوسها . رجفة اكتسحت الهيكل الذاوي في هذا الليل الطويل . انكمشت بدءً لنهوضٍ ، فزاحمتها الكرة الملتصقة أسفل الثديين وأنبأها تيار تشنجي ، كشفه الفخذ الضعيف بساقه

المرهقة . وأقصد الأيسر لأنّه غالباً ما كان يخذلها مثلما يخذل الجميع مستخدمي اليد اليمنى . فقدت وسائل الاستنجاد بغية النهوض . اتكأت على اليد اليمنى وبمساعدة ثني الساق اليمنى أيضاً وليس اليسرى افتراضا ؛ ثم الانحناء أماماً كخطوة أولى لتمرين ينتهي بالنهوض والانتصاب لكنها بنصف النهوض لا بادراك الانتصاب تهاوت إلى الوراء لتعاجلها شجرة التين بجذعها المتين كسند يؤكد الحنان . تشابكت الصرخة بالألم بتشنج الساق اليسرى ، بالرجعة التي كشفت وأنتجت غابة شعر باردة تطّوق الوجه باسلوب الفوضى لا بطريقة الانسياب .

الصرخة المتشابكة أيقظت أقرب الناس نوماً إلى الحوش . تناسلت ، فانشطرت ، فاستطالت . صمت الازيز تعبيراً عن انفعال يعكس الاحتجاج ؛ ودبّت حركة تراجعية باتجاه عمق الشقوق . جفلت القطةٌ معبّرة عن خوفها بالهرب دون التسلّق ، مع أنها كانت على وشك أن تفعل فاستثنت بسماع صوت .. وكانت نجاة تسمع صوتاً يستفهم ولا يُجاب . لا تفقه من أين يجيء لأن أصوات شتى طفقت تتداخل وتصطدم ثم تنسكب على المطرقة أو السندان داخل مملكة الأذن . ولم تميّز صوت فاطمة يوقظ الأم فيستفهما الأب . كانت الجارة تسترحم لتقديم أدنى نجدةٍ ولو من باب السؤال المقذوف من خلف الجدار : ماذا بك يا نجاة ؟ .. لكن الأب يقول : " نامي يا ابنتي هذه عادتها ، مسكينة ! " بينما حليمة من على خدر الوسادة بعد اختتام كلام الزوج تقول :" ماذا نفعل لها ؟ هذا شأنها " ثم بمنطق الضجر المغموس بالعتاب : " ما لكِ هذه الايام تكثرين اهتمامك بها ؟ نامي .. نامي !" .." كيف أنام ؟! .. كيف !!!" .. تولّد صوت التمتمة بمثابة حيرة .

يلاحقها مشهدُ شقِّ الباب ما قبل هجوم الاحزان ببواشقِ الحيرة ساعة جاءتها الاسبوع الفائت عصراً بتوقيت الرغبة في التذكّر والشعور بضرورة الزيارة تعويضاً عن ندم الانقطاع لأسابيع . كانت تطرق الباب وتنده هامسة : نجاة ! .. نجاة ! . افتحي أنا فاطمة " . والباب اذْ سمحَ لفتحةٍ يسيرةٍ بعرضِ مسطرةٍ شاهدت المنادية بعين البغتة وهياج الرعب منظرَ تمسُّخ نجاة .

صورةٌ غائمةٌ نقيض لما كانت تراها قبلاً .

تجمّدت ولم تدرِ بماذا تفتح الكلام . اوعزت للرأسِ بغية الانحناء زوالاً للرؤية . لكنَّ الرؤية تشبثت ملتصقة بجدران الذاكرة وبؤبؤ العين وستستمر تلاحقها مهما افتعلت من وسائل التمزيق .. ستبقى تُريها جمادَ الدموع على الخدّين (الليمونتين الصفراوين) وجفافَ الشفتين بتشققٍ يؤجّل نضحَ الدم ، وغابةَ الشعرِ المبعثر بفوضى لنْ تقدر حفنةُ أمشاطٍ اعادته ليغدو شعرَ فتاةٍ مفترض نزوله بانسيابية أو تكسرات تخفي نوعاً من تحسين الذات .. وماهذا البطن المندفع بتشوهٍ بائن إلاّ مفجّر حزنٍ سيبقى يحاصر هدوء فاطمة ويقلب هرم جذلها الآتي . هذا الانتفاخ الذي لم تره عندها من قبل . كيف حصل لها وهي التي نأت عنها العيون خوفاً أو رغبة عدم تذكّر حال احتشدت كل قسوة الظروف وغدر المسمى زماناً لتغيير معادلة سيره الحقيقي .. آه .. قالتها ولم تعرف أنَّ خطواتها أدخلتها البيت ثم الغرفة والارتماء على السرير مخنوقة بأصابع عَبرة ودمع تفجّر ليتدفق مع الصور المتلاحقة ابتداءً من لحظة الطرق حتى الالتفات كبحاً .. تغلق عينيها فتتّجه حليمة إلى طست الغسيل تملأهُ بالماء ؛ ترشُّ حفنةَ مسحوقٍ منظّف ، متمتمةً بجزعٍ موجَّه للغسالة الآلية المعطّلة . تسأل فاطمة عن حال نجاة بعد الزيارة أو بعد الصراخ ، وعن السرعة التي عادت بها . وإذْ لم تسمع جواباً تحسب البنت عادت لكتاب الجغرافية . تتمتم : " مجنونة هذه البنت ! " .. والبنت تمتم : " كان عليَّ أن لا أجبرها على فتح الباب " . مرتعدة ترفع الرأس تحاكي البنت المكسو وجهها كآبة حديثة يعرضها اللوح الزجاجي الصقيل إزاءها .

تقول تسألها : " لماذا يحدث كل هذا ؟! "

فيأتي الرد : : لماذا يحدث كل هذا ؟! "

تتكرَّس الكآبة في الوجه الزجاجي فيحاكيه وجه فاطمة بردِّ فعلٍ يعيد ملحمة الدموع مرّةً أخرى . ومرّةً أخرى يستقبل الفراش العينيين المبللتين ويضم الوجه بحنوٍّ كاتماً جهشات الصدر ؛ مفوّتاً على حليمة مفاجأة كشف الغير متوقع . والغير متوقع كثيراً ما يحدث لحليمة لعلَّ واحدة منها يوم جاءتها بهيجة بعدما تركت نجاة تعد الكباب خليطاً من اللحم المفروم والبصل المشرَّح أصابعَ أو شرائحَ مع تشابكات شحمية مقطَّعة ، مأخوذة من أمعاء عجل متين ريثما تعود قبل الغروب . ساعةً بعد عودة الأب . قالت : " علينا زيارة تسواهن . تهدَّمت صحة زوجها اسماعيل . يقول أبو حميد الموت يرتكن تحت رموشه ." .. " ماذا تقولين يا بهيجة ! الرجل عادة ما يمر من أمام بيتنا معافى .. هذا غير متوقَّع ! " .

ومات اسماعيل موت النهار . ذلك جعل الكآبة تستنفر مراياها . أسدلتها متوزعة على النائحات الصائحات ، مطلية ثوانيها بمساحة الحيطان الطابوقية متقطِّرة من شق الهواء ، ومبعثرة مع نثيث المصباح . يتشممَّنَ الرائحة فيطردنها بطريقة العويل بسبب قِدم المكان ورغبة تفريغ ترسبات الداخل حيث " نيوتن " يحضر بعدّته الفكرية صارخاً بهنَّ : " لكل فعل رد فعل " باحتساب أنَّ النتائج تأتي حصيلة المسببّات . فلولا السبب ما كنّا نقطف ثمار النتيجة . وإذا ذهبنا أكثر نلتقي مع مَن يقول : أنَّ كلَّ فكِّ شيفرةٍ يقود إلى تشفيرٍ آخر . حكايةٌ تلد حكايةً . وحكاية تلد حكاية .. حكايات تتمخَّض بترتيب توالدي . حكاية جدّة كانت أُمّاً . وحكاية أم كانت حفيدةً . وحكاية حفيدة كانت أمنية .. ولادات مستمرة ؛ وموت يتابع بشراهة ديناصور جائع يقظم بطريقة الآتي .

كان ذلك منتصف الشتاء ما بعد المستشفى ، يوم ذهبت بهيجة كمعزّية لا كبهيجة . وتبعها حميد كطفلٍ متفرج لا كمشارك . وإذ عاد تفجَّر يقصُّ تفاعيلَ العَزاء عن اللائي جففَّن أمانيهنَّ في أدغال خرائف العمر . رآهنَّ بهيئة مخاريط سود . وجوه بعضهنَّ لها لون الباذنجان ، وأخرى صفرة الليمون ؛ وأخرى يمسح الوجلُ ملامحَ ما قبلَ المجيء . شاهد عيونهنَّ تعدو في مضمار ذرف الدموع فيما الثقوب أعلى الحنوك أو تحت الأنوف تطلق نغم النواح دلالة انجاح العزاء واعطاء أحقيَّته لأنَّ تسواهن ستشعر بالارتياح كأرملة عندما تتخيّل ذات الحفاوة البكائية للوعد الذي سيأتي وتتمنى أن لا يأتي لأنَّ الاتيان يعني قظم بقايا الحلم الذي تركه لها بعلُها اسماعيل .

الرائحة تثيرها مُعززّة لديها حركة الأنامل تغوص كما الرؤيا على سطح الحائط المتسرب خلل شقوقٍ طابوقٍ رطبٍ يمتد ليجاور ارتفاع ماسورة الحنفية . رائحةُ اقترابٍ افتخار تنافسها على غسل الوجه لاكتسابِ فوزِ الجلوس حَذاء الأب .. يهتف بهنَّ ضاحكاً أن لا يتشاكسنَ ، فالواحدة منهنَّ ستجلس على يمينه والأخرى على شماله حيث حميد ما زال ممتطياً بساط النوم . نوم السنوات العشر ، بينما الأم بهيجة تُعنّف افتخار كونها تتجاوز مراتب الاحترام (أين افتخار الآن ؟!!!) . أنانية الطفولة تعدّتها إلى المراهقة ثم الشباب ، لأنَّ افتخار فكَّرت بعد موت الأب بضرورة أن تواصل نيل ما تبغي قبل نجاة ...

ذلك المساء عادت إلى البيت بعد الخروج عصراً : وجهٌ يستبدل صبغةَ الشجر برائحةِ الجذل ، وحركةُ جسدٍ يفوق ميسَ الريم . ولم تفقه نجاة حفاوةَ المساء ؛ ولم تسألها إنّما الجواب جاء بسمةً ترفعها مناهي لافتةً للفرح وهي تكلّم نجاة عن خطيبٍ سيطرق الباب .. باب مناهي وليس نجاة لأنَّ افتخار إدَّعت أنها تعيش مع عمّتها ، وسيكون وفيق أولَ المستقبلين بمثابةِ أب . ومن ذلك اليوم سيغدو سكنُ افتخار في بيت العمّة لا بيت الوالد .. بمعادلةٍ ثانية البيتُ سيغدو لنجاة فقط . رفيقتُها الوحدة ، وحوارها سيتم بأفواه العيون لا بهلالات الشفاه . وهي تدري أنَّ الأخت ما كانت أختاً إلاّ بقدر ما هي ساكنة البيت ؛ تأتي من عملها ككاتبةِ طابعة تتكلَّم بأصابعها لستِّ ساعاتٍ ثم تعود تدخل غرفتها فلا تخرج إلاّ لِما تنجزه نجاة طبخاً . بعدها تعاود الدخول لتخرج صباحاً لاغيةً (صباح الخير) أو (كيف أنت) .. تغادر المكان مودِّعةً بتحيات عيني نجاة كأمٍّ بديلة للَّتي رحلت .

بعد الزواج وأقصد زواج افتخار صارت نجاة تتعرّف على حالة الأخت الصغرى عبر نشرة أخبار مناهي أو أسئلة حليمة الزائرة : " هل زارتكِ افتخار ؟.. أمس كانت عندنا " . لا تجيب سوى بالعتب الدفين ونظرات تبعثها إلى صورة الأم كأنها تخلق سؤالاً يفوه : " ماذا تقولين ، يا أمّي ؟! " وإلى الأب فتسمع تعقيبه المتكرر : " لا رجاء لي بهذه البنت . لا تحب غير نفسها " .

المرة الأولى التي رأتها بعد سبعة أيام الزواج جاءت عن طريق نقرات الباب الخافتة ، والباب يعلمها بعد سحب المزلاج بافتخار الباكية بدموع مكتنزة ، تسبح أو تتدفق على الوجنتين الممصوصتين . تتلقفها الأخت الكبرى بهلع فتتعرّف على بدايات خيبة الزواج غير المتكافىء : زوج مهنته البطالة بعدما انتهى سيناريو الأحلام الذي رسمها لها بادعائه التجارة أو المقاولات ، أو أي عمل يدغدغ مجسات تفجّر الأحلام وانهمار الأماني .

تطمئنها الأخت الكبرى مع أنها كانت تعرف التكتم الذي مارسته الباكية الآن لأنها كانت تبغيه زوجاً ليس غير .. اخت تأخذ دور الأم في الطمأنة أو جبر الخاطر .. " اصبري يا أختي .. اصبري عليه " .. " كيف ؟! يطالبني بالراتب ؛ يصرفه لأجل الخمرة . وأنا ! أين أكون ؟ بأي شيء سأعيش ؟ " .. نجاة تفهم أنَّ لغياب الأب ضريبة يجب دفعها . حدث ذلك قبل الجنون ؛ أقصد قبل ضرب الجسر بتسعة شهور وعدّة أحزان .. لحظة تراجيديا الجسر . كانت نجاة تختم دقائقَ القيلولة برغبة الوقوفِ خلف النافذة ، محتميةً بالزجاج المربع المحيط بمربعات خشب النافذة .. أمامها النهر ، وفراغ الطريق ، والحركة غير الاعتيادية التي ولّدتها الأيام المزحومة بالخراب / بالرصاص / بالخفّاشات الحديدية / بالسهر الطويل وحمّى الإذاعات / وهجوم الذهول مع جحيم الأعصاب . حركة النساء المتزاحمات عند الجرف يغسلنَ الصحون أو القدور أو الملابس التي تشبّعت برائحة الأجساد المُجبرة على عدم مس الماء لأن لا وجود للماء في المواسير .. هكذا قالت مفجّرة الجنون / الحرب ، فانهال سيل التذمّر بمفردات الشتائم .. وكلّما طالعهم ذكر عريان استعانوا بمن خلقه ومنحه الفأل الذي يجلب الفزع بمجرّد الرائحة . فقبل ستة أشهر من الغباءات ازدادت خطى عريان على قارعة الشارع .. هنا توجَّست لحضوره الأشجار حذَراً فيما صارت العيون تحصي وقع نظراته فتنتج علامات استفهام متلاحقة مستجمعة خيول الحياة .. يغيب فيعود .. يعود فلا يغيب إلاّ ونُذُر ريبة مهيمنة بعودته .. في غيابه نسيان لمفردة اسمها القلق . في العودة تناثر مفردات مثل : الغدر / الفضائح / المداهمة / التنصل / الأكاذيب تلفظها بطون القواميس .

عريان اسمٌ رديفٌ لشيءٍ محذور سيحدث .. يضع قدماً ؛ ولا يعرف كيف سينقل الأخرى . يغرقُ في تأملاتٍ بهيئة ضغائن لا يفيق منها إلاّ بروائح فضائح صائحة :

"١" بيت تنظّف من أثاثه بسبب قدمها لا بسبب سرقتها ..

"٢" رجل يتمدد في زوايا بعيدة أو قريبة باسلوب النوم حنى اشعار لا يعرف اليقظة لأنَّ السائل الملوَّث لنصف جسد ماءٌ لا دم رغم احمراره ودكنته ..

"٣" الفتاة التي تعلن عن افتضاض بكارتها نتيجة اعتداء مريع لا بدَّ مجنونة أو ادّعاء من باب اثبات عفّة منتهكة قبلاً .. كل عودة يأتي بوجوه لا تألف العيونُ ملامحَها ، بل تستدعي مقارنتها بملامح عريان فلا تجد غير آثار خدوش من وجه لآخر .

هنيهةُ الطربِ لحظةٌ ليلية .. الوسائد تشكو ضغط الرؤوس وتوالي التنهيدات بعدما أقفلت الاذاعات تاركةً أجهزة المذياع صامتة . عاد المذيعون بعربات الخفارات صوب بيوتهم وناموا ... استحال الاستماع لهمس الظنون. اشتباك حبال شك ويقين تتداخل بسبب فوضى البرامج وتفاوت الوقائع : حرب ! .. لا حرب !! خروج ! .. لا خروج . ووجهك الفاقع – يا

حرب ! – يلعب فكاهةَ استبدال الأقنعة .. قناع ضحك .. قناع مرفوع الحاجبين ، مزموم الفم .. قناع ملامح جامدة . كأنَّ الحياة مسرحٌ . ولماذا نجعلها من باب الشتيمة وليس التأكيد . أليست هي مسرحاً ونعني الحياة ؟ ومناهي ترجو وفيقاً للمرة الواحدة أو العاشرة بعد الضجر صعوداً للاحزان أن ينام بهدوء ويُفرِغ من صندوق ما خلف العينين فوضى الافكار ؛ وهو يصر على أنّه مجنون إنْ لم يحدث ما يراه ؛ حدوث زواجه منها أو تكلّمه مع " أنليل " أو حتى مصاحبة " إينانا " وهي تقص عليه أطماع " أجا " في الاستحواذ على " أوروك " .. " نَمْ الآن !.. نَمْ !.. الناسُ نيام وأنتَ حاملُ أوزارَ الدنيا . " .

وحين فكّر أن ينام فعلاً لا حواراً مع ورودِ الوسادة المزحومة برائحةِ دهن الشعر وتقشّرات الاذنين نهضت بقامتها التعبى لا لتطفىء النور بل لتأخذ جرعةَ ماءٍ ترطّب جفافَ لسانها الذي أرهقه ترديد قول " نعم ؛ كلامك صحيح ." ورماه إلى اليباس وطعم العلقم " ... تتمتم كأنها ترد على لومِ نفسها الناصحة لها بالنهوض بعد الرقاد : متى أنهض اذا أنا لم أرقد ؟! ألا ترين كرتي عيني تشكيان من تفاقم الملح الذي يمنع الاجفان من الانطباق ؟!

عندما خرجت ؛ والكلُّ يخرجون لإداء المهمة . مهمة ترطيب الفم كان الهمسُ من غرفةِ بشير الإبن مسموعاً ، وخديجة تترجَّى : " لننام ، حتى لو وقعت .. ماذا نفعل ؟ هل نستطيع ايقافها .. ثم لماذا تصر على الوقوع لا على التراجع ؛ كأنَّك أبوك في العناد ؟! " . ولم تطرق مناهي الباب عليهما لتدعوهما للنوم أو الاستفسار عمّا يجعلهما مستيقظان .. ما فعلته هو الدخول على وفيق وحصاد رؤية إنْ كان قد نام أم ترك العينين مصوبتين باتجاه مسوح السقف ، بامتداد انتصاب الأختام . مسَّت الحائط بكفّها فاقتحمت الغرفةَ أجنحةٌ سود لأطياف ترتدي ملامح الاشباح .

قيل أنَّ المدينة بعد ستةِ أشهر من المتابعة التلفازية المقرونة بادارةٍ تصل تخومَ الملايين كمؤثر كشف المحطّات أصبح سعتها دكاكين تتكىء على رفوفها الفراغات . فراغٌ ينافسُ فراغ . وفراغٌ يزاحم فراغ . فراغ يُعلن ارتياحه لزوال المُعيق الذي يضغطه أو يخنقه كإشارة لانتظار الاشياء .

فراغ يتناول الغبار فيُصاب بالبدانة . نعم كانت الفراغاتٌ أجساماً بدينةً تثير حساسيةَ العيون ، مُشعلةً فتائلَ حارقة في جادّات الاجساد المارّة أو الواقفة مستوفَزة بالفضول والتتبع . وصار على فاطمة ألاّ تخرج إلى الشارع لأنَّ نهديها بَدأءا يبينان كالازرارِ على جانبي صدرها . وصاحت حليمة تخاطب الزوج : " ضع في حسبانك أنني سأشتري عباءة لفاطمة ." والبنت بين رغبة في الكُبر وتمثُّل النساء وبين إحساس بالقيد وعدم خروج دائم للشارع تنهصر كما لو كانت ساق طري . تتذرَّع بزيارة نجاة صرفاً للوقت تارةً ؛ وتارات تصرخ إزاء اتقاد عيني حليمة الرافضة بأنهم يجعلون من البيت سجناً للبنات .

تستقبلها نجاة بـ " أهلاً .. أهلاً " طريقة للتعبير عن السرور . وسرور نجاة يتمثل بإطلالِ وجه عليها .. يجلسان بمواجهة شجرة التين على بساط تستلّه من غرفة الأم . تفتح نجاةُ عينيها تتمثّل الاندهاش : " أنتِ تكبرين ! وعندما تكبرين تزدادين رقّةً . أرى بشرتَكِ تمتص لونَ الحنطة . خدّاك يمتلئان بالرواء ؛ أما حاجباك فيشتدّان كثافةً ، يلامسان رموشك قبل أن تتقوَّس . وشفتاك بلا احمر شفاه يشبهان ورد الرمّان .. صرتِ فتاةً الآن ولستِ صبية ، يا فاطمة ! "

تنشرح فاطمة لهذا الاطراء البانورامي للوصف . تتمنَّى لو يجيء هذا الكلام من حليمة الصارمة ؛ لكنها تتذكّر أمّها تمتدح :" بدأتِ تشبهين هديةَ بنت أخي بملامحها ؛ غير أنك تتجاوزينها طولاً ." ؛ والمباحة بالتشظّي وهي نجاة تتذكّر أصابع المجهول . تتلمَّس بحدسها وتهجساتها مجيء اليوم الذي وضِعَ كحدٍّ فاصلٍ للجمال والقبح : الحب / الحرب !! .. تبتئس خشيةَ تبدد هذه الفتنة وتلوثها بهوس الدخان ووحل الشحوب ، ورماد الضياع .

تنهض إلى المرآة لقياسِ أشبار الخيبة وزوايا الدكنة ومسارات التغضُّن ؛ باثَّةً امتدادات أذرُعِها فوق الجبهة والخدَين نزولاً إلى أدنى الرقبة ؛ نابتةً مخالبها على لدونة البشرة التي تحسّها الآن تتخلّى عن طراوتها واليناعة .. تقول لها المرآة أشياءَ تغيضها .. منها :

" لو جاءت الحرب فعلى تطلّعاتك السلام "

و " لو مرّت السنوات أنسي أنَّ أحداً سينتبه إليك "

و " ما تبقّى من لياقتك يكفي لجفاء الحظ ورحيله ." .

وعندما دوَّت أولُ رشقةٍ سماوية تبعثها لطمات بشكل صرخات أرضية مدوّية سبقت صفّارات الانذار قيل أنها لحظة بدء الجنون .. هنا !! . هنا فقط أعلنت اللحظة انتصار المتنبئين بحلولها ؛ صافعةً المتكئين بظلال الغباء ، وأفواههم التي كانت لا تطلق غير : " اطمئنوا .. لاتقع أبداً " . ساعتها هبّت نجاة لتتدرَّع بسلاح النور تقليلاً لمؤشر الرعب الذي ارتفع ليدق بسقف الفزع والارتعاش .

أشعلت المصباح فتفجَّرت الأرضُ اهتزازاً ... تمايلت نجاة الصغيرة خلف الزجاج ثم تركَ الاطارُ استنادَه على المسمارين صافعاً الحائط . صارت الفتاة الصبية المبتسمة بوضعٍ مائل / منحرف . بدت كأنها تسكب الابتسامَ عنوةً . لا بدَّ للبيت من أن يُضاء ؛ لكنَّ الضياء ارتدى ثوبَ العتمة بعدما تكررت الاهتزازات وعمَّ الدوي الهائل المهول أرجاءَ الدنيا .

تتنبأ بالفرح فتفاجأ بالاحزان . وهي حليمة التي تصرخ من عُظم المباغتة داعيةً فاطمة للنزول لأنَّ غرفتها قد تنهار لثاني ضحكة سماوية ، أو ثالثة دون أن تعلم إنَّ المواقع ؛ أقصد الغرف تتساوى تحت تاثير هذه الضحكة لأنَّ سقف الغرفتين في الأعلى عُملا من مواد انشائية متشابهة .. تقول :" اسرعي ! " ولا تدري أنَّ البنت هي الآن خلفها تحتمي . صارت لها موضعاً دفاعياً ومصدّاً لجبهة قتال اتجاهاتُها سائبة . والأب يفشل في ازاحةِ حثيث الفزع من القلبين الهلعين لأنَّ قلبَه كان مَسرحاً لضجيج الرعب وشاشة تبثُّ بيسرٍ مناديلَ الخذلان المنوَّعة ، حيث استعاد روائح الضمادات تطوف كالبعوض أسراباً فوق سريره يوم كان مقاتلاً جريحاً في حرب سمّاها العدو (حرب الأيام الستة) تيمناً بشساعة فرح الأرض التي غنمها دون توقّع كما شيء يحدث في حلم . لكنَّ الوقائع أثبتت أنّه يقظة ناجزة ومتواصلة حيثُ العرب لكرمِهم الحميم وطيبِ نواياهم دائماً ؛ دائماً يحوّلون أحلامَ الغير حقائقَ ووقائع ويقظات لكي يملأوا صحائف التاريخ بعظم سخائهم . ثم تحايلوا على نوايا التاريخ المُصدِّق لأقوالهم حتى يثبتوا من بابِ الكبرياء دهاءه المفترَض حين أقنعوه أنهم سيسمّون هذا السخاء الذي يصرُّ الأعداءُ على اعتباره هزيمةً ساحقة بـ " نكسة " لأنّهم مُطالَبون من الصغار الذين سيصبحون كباراً بحكم النمو البايلوجي بفضِّ بكارة زمنٍ كان لهم حاضراً وسيصبح ماضياً ، فتصبح مفردة " نكسة " أقل رنيناً من مفردة " هزيمة " ؛ إذّاك تحتملها آذانُ المستمعين وتستطيع التآلفَ معها .

وهكذا عاد الهلعُ لقلبِ نجاة حالكاً . خلعت المصابيح أنوارها ، وتركت رؤوسَها المنتفخة عرضةً لاستباحةِ الظلام ... لاذت بالشبابيك المصوّبة أنظارها على الشارع فلم تفلح إلا بتواترات صفارة الانذار وهي تثرثر برغبةٍ فاضحة وشماتةٍ هازئة بالايدي التي أخرستها طوال ثلاثة أعوام مستحيلة عرضةً للتحنّط ما بين الجنونين . وعندما اقتربت لسمعها أصواتٌ لها رائحةُ المستشفيات لمحت شرائطَ ضوئية تُضاء وتنطفىء وتدنو شعرت بإلفة حميمية رغم سحنات المآسي التي تحملها ناقلة الأضواء المضاءة ، المطفئة . وحين خطفت من أمامها أمرت الكفّين بتحسسٍّ ترابط الاعضاء لئلا تكون انفصلت أو تمزّقت ، بدءاً من من الرأس حتى الكعبين . تملك تلك اللحظة أن تتحسس سيحاً ساخناً نسميه دماً كيما تعيش الالفة مع باعثي الصيحات ألماً ؛ هناك ! تحت هيمنة الكف صاحبة الصمت الابدي ، إلغاءً للحيّز الوسيع من الضياع واللاجدوى .

ولم يكن الذي يجري بمعزلٍ عن الألم وليد التشنّج . ولا الدوبة المغروزة في الرمل بهيئة الاتكاء وهي تنادي : أنا عريان .. أنا عريان وليس دوبة .

ينبري من مغارةِ أحدى الانبعاجات رأسٌ ثم يدان يتدّليان على صدرٍ ملفوف بالظلام . وتخبرُها حاسةُ الشم بقدومٍ يشبه رائحةً تبثُّها بطونُ المستنقعات بينما ظلامُ الغرفة يُخبرُنا عن قطعةِ أثاثٍ بهيئةِ نجاةٍ جامدة بتأثير الخوفِ هذه المرّة . تتحركُ القطعةُ والهواءُ يجوسُ أنفاساً راكضة على جادّاته المتعثرة ثم ارتطام يحتوي نصفَه حوضُ الكرسي . تبتهج مخلوقاتُ الغبار الهامدة فتعلو بتصاعداتٍ مشتتّة تتراقصُ فوقَ تضاريسِ الوجه وغابةِ الشعر . ترسو عليه ، ما عدا الفتحتان : أنفٌ وفمٌ يرفضان هذه البهرجة باستثناء المشاكسات من فتيات التراب حيث الدخول شَفْطاً خلل ممرّات توليد الانفاس .

بحثت عن الإلفة لغرضِ تجاوزِ الفزع ونسيانِ الدوبة المقتربة من الشارع فلم تجدها سوى لدى القطة التي دخلت تموء ودنت تتشبّث بساقيها بحثاً عن حنانٍ مُرتجى بعدما تعبت من تسلّق الحيطان ومداهمةِ البيوت طلباً لطعامٍ منسي أو مهمل ولم تنَل غيرَ الزجر والـ " بشت .. بشت " دلالة الطرد لا وسيلة المداعبة . تنحني لترفعها لكنَّها تصطدم بكتلةِ البطن البالوني . أسفلُها يصرخُ بتواتراتِ وجعٍ جعلَ القطةَ تجفل محتسبةً الصرخة من بابِ الطردِ المستمر . تقفزُ باتجاه البابِ قفزةَ الذي ستتلقّى ضربةً بعصا أو بفردة حذاء أو أي شيءٍ يقع قريباً من اليد . تناديها : " تعالي " فلا تستجيب . تنسحب على مواء عتابي لائذةً أدنى الكرسي البعيد فيما عريان يغيب من خارطة الطريق مخلّفاً رائحةَ المستنقعات .

سكون ...

همود ...

المدينةُ كأنَّها لفظت الانفاس ، واعلنَ الليلُ هدوءاً كتعبيرٍ عن ذهول بطولِ سؤالٍ يزيد عن الاستفهام بـ " لماذا " ؟ . اندهاشٌ والمدينةُ النائمةُ أماسيها على حسرات تُنتج أنيناً .. والشجر! أينما يكون الشجرُ يتركُ أوراقَه تتهاطل كأنفاسٍ : نَفَساً ، نَفَساً بينما الفجر المُضبب بعيدٌ / هارب . والزمن يمسك بتلابيب الهزيع الأول معلناً تواصلَ همود الحركة . كل ما يحيط يخنقُ أسرابَ أحلامٍ أطفأت التحليق أو تقصّدت المجيء هدفاً للانتحار . لم تقدِر النجومُ رُغمَ هولِ كثافتها أنْ تهبَ بُعداً تفاؤلياً للوحةِ المدينة المُعلّقة على عارضةٍ خرقاء . كذلك استمرَّ طارق يُحصي اخفاقات الردِّ على رسائلِه ويزدحمُ تفكيراً بكيف سيواجه القلب . قلبُه الذي أنبتَ رغبةَ حبٍّ فاطمة وسقاه عصارةَ الذكرى دونما أفقٍ بائنٍ أو سيبين . كيف ردَّ على تحية عريان الماكرة عندما اصطدم كتفاهما على اسفلت الجسر لحظة كان عائداً بالشِّباك الفارغة . شِباك الظفر بردٍّ فاطمة أو حتّى رؤيتها على أقل احتمال يمنح المواصلة .

يستعيدُ عيني عريان وهما تسفحان سخريةً أو تشفّياً أو ابداءَ عون . يستعيدهما كي يعيد السؤال الذي انبثق حالما خلّفه : لماذا حيّاني وهو لا يعرفني ؛ ولم يكن لي معه إي كلام ؟! . السؤالُ شطر احتمالين .. الأول : أنْ يكون قد رصدَ وعدَّ المرات التي أقطع خلالها الطريق بين المركز والجامع . والثاني أنْ يكون يتابع فاطمة ؛ يحبُّها ولا تُحبه ... الاحتمال الثاني سرعان ما تبعثر وابعدته آلات التفكّر بجواب : لا يمكن لرهيفة كفاطمة أن تمنح هذا الأخرق قطيفةَ القلب ليمزّقها بمخلب الجهالة .

هكذا الاحتمال يأتي طَرْقاً بلمحةٍ أو بعزيمة ؛ وربّما كان للشيء المحسوم توقعٌ ولا قدرة لنسخهِ أو تجاوزه من خلال الكلام القائل لا يصلح العطّارُ ما .... أو الآخر القائل أيضاً ونحن نقلبه (القدر غَلبَ الحذر) .

جوقةُ كلاب تمرُّ هزيلةً ؛ تتشممُّ الرصيفَ ثم العشبَ المتعالي . أحدها يقضم عشبةً نافرة ؛ يلتهمها . تعجَب ! الكلاب لا تأكل غير اللحم وامعاء الحيوانات وتطارد القطط المنافسة الابدية

لشهيتها . تحرّض عينيها لئلا تكونا قد أخطأتا الفعل ، فتؤكد العينان حتميةَ صحة القول بباقي الكلاب تتوزع منهمكة بالتهام الكثافة النباتية ... هيْ ... هيْ .. هيْ ! مَن الذي سمع شتات الضحكات ... هوْ ...هوْ ...هوْ ! احتجاج معلن أو شكوى صارخة بينما الآخرون سمعوا وأغلقوا أبواب السمع . البطون فراغات تبغي الامتلاء . لا وقت لرفع الاعناق والرد . عندما اختفى كبيرُهم تسللَّ الباقون باتجاه النهر ، منجذبين برائحةِ زنوخةِ الماءِ وغريزةِ ضرورة البقاء مُعاشة على سمكةٍ خرجت بطريقة البلاهة أو الخطأ عن حلقة الحياة باتجاه اليابسة تستكشف برودةَ الرمل أو قطيفته المثيرة لاغراء التحسس .

تذكرت وهي المطعونةُ برغبةِ الاهتمام بمخلوقات النهر / السلاحف فخافت . سلحفاتُها التي رفعتها وجاءت بها يوماً ما عدواً ثم أعادتها بعدما جوبِهت بوائدة الرغبات بهيجة الأم . خافت من الجوقة . خافت فاستدارت مستعينة بشاشةِ الظلام / بثقلِ الحركة / بالبطنِ المنتفخ / بصمتِ الجدران / بتهافت الأعوام / بالسنوات الخمس والثلاثين / بنأي الأخ المتجافي / بجحود الأخت ... افتقدت مناهي .. أين مناهي ؟ . فكّرت بالخروج إليها ! فكّرت بالخروج .. فكَّرت .. ثم : آآآآآ ستمزّقها الانياب وتنهشها الفكوك .. آه سلحفاتي أينَ هي الآن .. أين ؟ ..آ .. أين ؟!

تتداخل فيوضُ الليل . نزوعُ استطالاتٍ منبثةٌ شطرَ سبوتِ مخلوقاتِ النهر ، وما يتراءى على الجانبين . المستشفى الذي يختزن الاجساد المنهكة ؛ المنهكة بخروقات الألم وتهالكات الافضاء . استغاثات النفوس المستلقية بيأس يطلب الحتم والخاتمة على جادّات ترجّي الخلاص . في المستشفى ممرضات آثرنَ الصمت بعد التشكّي ؛ فكل ما تحت أيديهنَّ لا يفي بغرض نسيان واقعة بسعة ثوانٍ . أمّا الأطباء فقد آلوا على يقينهم رغبات تتوافق وطلبات المستغيثين ، الصارخين من خلال ما يقولون : " العمرّ كومٌ من زمنٍ تهافتي تخضّبه حنّاء الأيام بمسوحِ الألم واليأس والعبث . إذاً لماذا نبقى نجتر الأحزان والقلق ؟ " .

لحظة ضُرِبَت تلال " أوروك " باسلوبِ ثلاثة صواريخ طبقاً للهدف المنطبق على صليب الشاشة فزَّ وفيق مرعوباً .. ولا ندري إن كانَ قد نام أم توالى يقيس أمتار الظلام المنبعث مّحتلاً فضاءَ الغرفة كان العقربان الفسفوريان يرسمان مستقيماً نقطتاه الرقم (٣) يميناً ، وشمالاً الرقم (٩) يجثم عليه العقرب الكبير انفراجاً دلالة احتساب الهزيع الأخير .. فزَّ مرعوباً على صخرةِ جلجامش المطعون بالخذلان البشري ؛ وحكمةِ أنليل القائلة بثبوتية خُبث الانسان وغضبه عليه . .. فزَّ والفمُ يصرخ : " هكذا هم يا إينانا ، أينما يكونوا يكيدون كيداً لاغتيال خصبكِ . " . وكان جوفُ الإناء على الرفِّ يدرك تكسّرات عيدان أو حركة بمثابة طقطقة حرمل . دخانُهُ حدسَهُ وفيق بدءَ غضبِ الأرواح المتوسدة إرثها الذي حسبته بعيداً عن الاحقاد فيما مناهي حسبت الزوج يعلن موجزَ الجنون الذي يتبعه بتفاصيل الصدمة المهولة رغم اصراره بحدوثها . شرعت تقرأ سوراً من كلام الله إبعاداً لمحفّزات ضياع العقل ؛ وهو يصرخ بها : لا بدَّ إنكِ جننتِ ، يا مناهي .! ألم تسمعي عواء الدمار ؟! ألا تشاهدين أذرعَ الدخان تستطيل وتنشطر! " .. تقول : " أين ؟ .. كيف ؟ أين ؟! " .. يردد صارخاً : " يا عمياء . انظري .. تشمّمي ..اسمعي ! " . تكلّمه بهمسٍ خشية سماع الآخرين إبناً وزوجةً وأحفاداً .

وكان الإبن هو الآخر يصرخ بصدقِ الرأي والتوقّع . تصرخُ به : " إهدأ ! " فيصيح : " كيف واينانا جريح ؛ وجلجامش يعصُرُه مغصُ الحسرات ، وأجا يعدُّ العدّة لاقتحام أوروك ؟! " .

خلف الدعاءات والتضرّعات تتوارى رجاءً بعودةٍ يفحمها الهدوء . ونجاة تجد بيتَ كريم أبوها خارطةً لدمارٍ حتمي ، إذْ اهتزّت جميع الشبابيك اهتزازَ التفكك والتهدّم أو السقوط . عابثتها الحيطان بهواء مطعون بالغبار بينما الظلمة قالت : هيّا ؛ استدعي مفردات الفزع : خوف / رعب / هواجس / أشباح / طنين / كوابيس / مسوخ / صراخ يمزقه صراخ / صفير يداهمه صفير يتواصل بذات الرنين .

الليلُ يجاهرُ بظلامه ؛ والطبيعةُ صاغرةٌ تحكي انتهاك الانسان الفاجر لعُذرية الأرضِ واستهتاره بعذوبةِ السماء ومجونه بكلِّ ما مُنِح . ضاعت نجومٌ كانت نجاة تتلهّى بتتبّع انسفاح ضوئها ، ولم تعُد ترى غيرَ تصاعد ألسنةٍ حمراء تشظّي خيوطاً أو رغاويَ ضبابية هنالك بعيداً ، تمارس عملَ ازاحة الرؤية وتلاشي أية نجمة مهما أدّت فعل الاحتراق .. سمِعت صوتاً يقول أنها انفجارات واشتعالات مصافي النفط غرب المدينة . لا تدري إن كان الصوت وليد الشارع أم طليق فناءات البيوت ، أو ربّما حررّه شُبّاكٌ فُتِحَ للتوِّ ثم انغلق بفعل تأثير الاحتمال أنْ تعاد كرّة الضرب التي لابد أن نسميها غارة ؛ لأنَّ الحدث سيتكرر عبر الأيام القادمة وسيصبح بمثابة عادة يومية لا تنام الأنام إلاّ بعد حدوثها . . لكأنَّ الحدثَ رنّةُ ساعةٍ تستدعي التوجّه إلى الوسائد ختاماً لاحتفالية الجنون .

ما تبقّى لتلك الليلة أوحى كأنَّ الصباح لن يأتي .

كم عسير انقضاء أمتار اللحظات وصولاً إلى باب الانتظار كهدف يكون السعي إليه نجاحاً ؟ .. وعندما داهمت الشمس أعينَ الصاحين بدت الليلةُ الفائتة كما لو كانت حُلماً كابوسياً تخللته آلام أمعاء وغازات قابضة عسيرة على الخروج .

لم يكن ثمّة مستنفَّر كما هي الاذاعات !

الاذاعات استحالت أفواهاً تخلّت عن شفاهها فأضحت لا تعرف الانطباق . دخلت دربَ الثرثرة مزروقةً باكسير المفاجآة و : " جاءنا ما يلي – صرّح ناطق عسكري – ما زلنا نتلقى البلاغات تلو الضحكات تُغيَّر باسلوب الكوميديا . ولا تدري الاصابع على أيِّ رقمٍ توقف المؤشر ، ولا الآذان أي نشازٍ تسمع . كلٌّ في سباق ! لكأنَّ الأفواه المهرّجة شُحِنت لهكذا ساعات . صارت لإجهزة المذياع هيبتُها وجبروتها ؛ وصار لحجرِ البطاريات ثمنٌ يُتباهى به بفعل صمتِ مولّدات الضوء والصوت والحرارة الكهربائية وتفتّت هذه المفردة . وصار تذكّرها حسرةً ؛ وحسرتُها ألماً ؛ وألمُها دعاءً للانتقام ممَّن فعلها . والدعاء يتيه في خضم القصف المتعالي فوق أصوات الغيب . والقصف سيّد الأنام هو الرب الجديد لأناس خذلهم مَن وجهوا له دعاءاتهم والتضرعات . ماتت حركةُ أسلاكِ الهواتف ، وانقطع صوتُ الانسان تواصلاً مع الانسان . فقدت فاطمةُ كلَّ صلةٍ بـ" الجريدة " التي كانت أغنيتها الملفوفة بالعاطفة . استحالت أشتاتاً تُبعثرُها انفلاقاتُ المفرقعات الشبحية . عادت تقرأ قصاصاتِ طارقَ فلا تجد فيها الرائحةَ التي ترسمُ دوائرَ الاشتياق والتحليق باجنحةٍ خضراء في نشوةِ الحقول لأنَّ المدارسَ أُغلقت كواحدةٍ من الهياكل التي مسّتها صدمةُ التوقّف وباتت تتعطَّش لضحكةِ رفيقةٍ تزف لقرينتها خبرَ تأجيلِ امتحان أو حيازة درجة غير متوقعة . تتعطّش لضجيجِ ما بين الدروس . تتلهّف لصراخ مُدرِّسة تلاحق تلميذات اتخذنَ من زوايا المراحيض حيوزاً لتبادل الهمس عن مستجدّات حدثت لأجسادهنَّ وبتنَ ينظرنَ لها من باب الحيرة أو ربّما اليقين من نوافذ الوقائع التي سمعنَ عنها أن ستحدث لهنَّ يوماً ما ، قريباً وليس ببعيد .

الليلُ يجاهرُ بظلامه ولا عَزاء للارضِ سوى انتظار نهارٍ بطيء سيجيء أو قد يتعثّر بحفرِ الدكنة المتوالية .. ليلٌ يحكي هيمنةَ الآتي من الأيام . آ ..الأيام .. أيام .. أيام . لكأنها أدركت ضخامةَ المديات فاكتفت بزرع الانظار ، منساقةً برغبة اثبات الوجود وتهشيم قهقهات السماء المحتفية بألقها وبهائها .. ترتدي أحلامُهمُ ملابسَ العُري ، مجسّدةً خارطةَ فتنتها بلوامسِ الغواية . يحتفون هم ؛ وليس لي رغبة القول مَن هم ... يحتفون لولادة صور عديدة ملامُحها الدهشة . صورةٌ تغمرها أسنان ناصعة دلالة الابتسام على السعة . وأخرى لأكف تصفّق أو تتصافح أو حتى تحمل ورداً ينتهي بالرمي إزاء أقدامها حيث لا يبصرون لها اصابعَ تشبه أصابعَهم . تُمررُ كفّها المراوغة الثعبانيةُ الملمس فتتحسّس رؤوسُهم خشونةً يفسرونها دغدغة . واذ تهبط الكفُّ وليست الدغدغة تفزعها سخرية المفاصل . تروح تدفع الاجزاء سباباتٍ وابهاما لرسم بصمات لها شكل جروح يزرعونها على أديم القلوب الخضر لتلوّث الألق .

يؤاتيها الألم وهي نجاة الحائرة ..

يؤاتيها باسلوبِ التنامي البطيء .. يبتدىء دفيناً ؛ خنجراً يحزُّ كوامنَ الاحشاء بحزٍّ مسيَّر تصاعدي . قليلاً ويبث نصالاً لاهبة تمزّق بعبثٍ خارقٍ مفارقَ الامعاء وتشابكاتها . يبثُّ حِزماً منقضّة أسفل انحدار البطن . تستعين بالكفّين . تتشبّث بالاصابع فما تنتج غير غمغمة / صراخ / دمع ثم استنجاد بأشباح الفضاء . قبضات تضربُ الحائطَ أو الباب أو قضبان الشباك غير المرئية .

هيَ .. هيَ القبضات تضربُ جبهةَ الحائط لحظة أغمضت بهيجة العينيين كآخر حركة تحوز صورةَ المتحلقين لتضمّها تحت ثنايا الأجفان .. هي ذات اللحظة التي اهتزّت الأرض حول المُحاصَرة بالوحدة الآن ؛ والجسر الماثل قبالتها بنهارِه الثلاثائي ، بمارّته من الشخوص البشرية ، بالجالسات عند الجرف وعلى جانبيه مستحيلةً بلقطةٍ فلميةٍ تمتصّها العين وتشكّلها نثاراً دموياً / انقلاباً وتدحرجاً / تطايراً وزحوفاً .. دوَب حديدية رافعة جسد الجسر تنفلق / ألواح خشبية تتشظّى /رؤوس تحلّق طيراناً بانقذاف أخرق / شعور تتبعثر / أيادٍ / أكف / أقدام / أمعاء / أنوف / أسنان / قدور / أثواب / ازرار / ياقات / آذان / مسامير / براءة طفولية / حرص أمومي / جزع تراكمي / نداءات تتالت تبغي الله أنْ لا ينسى العراق ؛ أن يحضر بجبروته وغضبه ! .. ثلاثاء مهولة ! المحلات المواربة على خط الاسفلت المسمى شارعاً ، والشارع المسمى كورنيشاً تلفظ أحشاءها . المحتويات تُرمى مع تهشيمات واجهات المباني . ليس غريباً رؤية الناظر أبدان سيارات ترتفع عشرات الاقدام علوّاً فتثار بالذهول . تمنحها وهي نجاة الصورةُ السريالية وهدةَ السقوط أسفل النافذة ، حيث الرأس يرتطم بقائم كرسي اهتز أولاً ثم تهاوى منقلباً مع تكالبات الاثاث التي تداخلت أركانه واستقبل سقوط صورٍ لأُناس كانوا يبتسمون خلف ألواح الزجاج لزمنٍ كان معافى ، محفوفاً بأمانٍ لها حجم الإتساعات .

كلٌ ينشغل بالذهول ..

كلٌ يشاغله ديدنُه إلاّها . ظلّت غائبةً عمّا حدث بعد اللقطة . ومناهي الذاهلة قليلاً تستدعي قطرات من دمع لتبلل وجهها مخففةً الصفرة ؛ مقللةً الازرقاق من صفحة الجبهة والوجنتين . تعضُّ الشفتين بما تبقّى من أسنان أمامية عندما تذكّرت نجاة . تلقَّت العباءة ؛ وبومضةٍ برقية تلتهمُ الدرب اندفعت . تطرق البابَ فلا تسمع للمتهالكة ردّاً . تصرخ بمفردات الفزع فتلتمُّ حفنةُ مارة . تتحلّق شخوصُ الجيران . يقفز أكثر من صبي متسلقين النوافذ صعوداً إلى الشرفة ؛؛ نزولاً إلى الحوش ثم فتحاً للباب الرئيس ؛ فهجوماً للبحث ... !

في تماهي المرآة تسوح العينان ..

الشَّعرُ فوضوي ؛ نديفٌ مشعّث يؤكّد قبحَ الشكلِ الماثل بمواجهتها . ترفع الكفَّ بدعوى هرش المنابت جرّاء صخب الحر وجنون التعرّق . تؤلمها التشابكاتُ ، وبالكاد تمس رؤوسُ الاناملِ طفحَ العرقِ ؛ هي التي قالت لها الجارة " تسواهن " ، زوجة اسماعيل قبل الوفاة عندما كانت تطالعها بعينِ الاعجاب الباهر أو الحسد الدفين يوم كان الشعرُ جديلةً تنساب كأفعى على لوح الظهر : " كم تصرفين من الوقت لغسله ؟ ".. ولبهيجة الجالسة جنبها : " كيف كنتِ تمشطينه لها ؟ " ... لا أدري لماذا وأنا أكتب هذه الكلمات تستحضرني حكاية قرأتُ عنها زمن الصبا أو ربّما سمعتها من جدتي المولعة بأنشطة السعالى ورهبة الغيلان عن تلك الحورية الجالسة على درابزين جسر المدينة ، أسفلها يجيش النهر هادراً منهمكةً بتسريح شعرها المثير ، وويل لمن يدنو منها أو يحاذيها بسيرهِ ، إذْ سيباغت بسيل الشعر يحيطه ويلفّه ، وبحركة لولبية أو كالدوّامةِ تُلقي به قشّةً إلى النهر .

لا تأثير للحكايةِ على الكلام ؛ وليس لها مساسٌ بالأمر طِبقاً لتحليل ناقد قارىء ، لكني أكتبها فقط كتذكّر . ومضةٌ خاطفةٌ مرقت بسماءِ الذهن لحظةَ الكتابة ؛ ونجاة تبقى أسيرةَ الذهول اذ يعافُها الألم .

يعاند اللحظاتِ استفزازُ التشظّي . تشظّي الأفكار المترابطة بخيطِ النباهة . فكرةٌ تنتظر مجيءَ الصباح عبرَ الألم . تحصي عدد الخيبات في مسلسل الأسى من الغياب التتابعي حيث رحيل الأم ابتداءً وهي الذاهلة لا تفقه سقوط الرغبات خازوقاً فوق جبهة التحقق .. منذ السقوط أسفل تهالكات الأثاث أو بغتة حضور الإنتباه من على السرير الأبيض ذي الشراشف البيض ، المحاط بجدران ثلجية تتفاعل مع زمهرير الهواء الجامد الثقيل .. يكلّمها الرجل لتدوين فاتورة المعاينة ، فيأتيه الرد سؤال مناهي : " ماذا بها ، يا دكتور لا تتكلّم ؟! "

كانت المستلقية المأسورة بالبياض تتكلّم ولكن بلغةٍ تلغي الكلمات . رموزُها شفراتٌ تبثّها عينان اتخذتا دور الكشّافات . تدوران تمسحان الوجوه المتحلّقة فتريان بهيجة وكريماً وحميداً وافتخاراً ، وشخوصاً عائلية تشاركهم العمّة مناهي ومعها ندى ثم وجوه أخرى بهتت ملامحُها على شاشة الذاكرة .. وجوهُ مخلوقات بهيئةِ صبايا كنَّ بثثنَ رؤى تعيدها تمزّقات الصور المبعثرة .أرادت أن تنده بهنَّ : " يسرى / ابتسام / هناء / مليحة / التفات / وفاء ! جناح غيمة أنا ، أهفو للانظمام لسربكنَّ ! ".. رأتهنَّ ينأين : " هاكنَّ يدي ؛ لنعود .. هاكنَّ جوارحي .. آ .. لا .. لا ..! لا تغربنَ عنّي ! " ..لاحقتهنَّ .. صرخت .. هتفت ؛ فكان الهتافُ صدى ! " ها.. كن..! ها.. كنننننننننن ! . وحيث لم يجبن أججّ الروحُ مكامنَ الدمعِ . حفّزَ منابتَ الكلام على النطق . استدار وجه الرجل يُطلع المحدّقين : مناهي وحليمة والزوج المحاذي لابنته فاطمة ، ووجوه جذبتها الرأفة مُقرّاً بوجوب العودة ثانيةً لأنَّ المستلقية الآن خارج حلبة فحوى الوجود بينما تبان عينان ثعلبيتان من خلف أحدى نوافذ الردهة ، تلتقطان بعين الكاميرة مشهداً يكتنفه غموض ثقيل ، وتحفّزان مجسّات الانصات لتلتقط آخر الوقائع لأنَّ في وقت قصف الجسر لم يكن صاحب الكاميرا العينية يتكىء كعادته على حديد واحدة من الدوَب المغروزةِ في رمل الشاطىء عوناً للاخريات العائمات فوقَ الماء في هذا الوقت ، بل في زاويةٍ لا نعرفها أبداً .. أبداً . وظلَّ نائياً عن عواءِ التهشّم واستغاثات المطعونين الذاهلين ، يحدّق في بقايا القارورة الناهضة فيُنتِج ضحكاً متواصلاً وتشفياً يرغو كالغمامات .

كست الهواء رائحةُ أسماكٍ متعفنة ورغاوي لاحقتها انبعاثات غازات دفاعية تطلقها سلاحفٌ خارجة من فيض الأعماق ووجدت نفسها مُداهَمة بخطرٍ وردِّ فعلِ دفاعي غريزي . مثل هذه الرائحة تكررت كثيراً هذه الأيام تبثّها حشود وتراكمات المزابل المتوالدة بارتفاعات وحجوم تترصّد وجهَ هواءِ الحدائق لاغتيال نظارته .

عندما قدِمَ ذلك المساء . مساءُ أحد أيام شهر مايس أو تموز أو أيلول أو أي شهر من أعوام ما بعد حرب الخليج الثانية ؛ وهو ككلِّ المساءات يقدِم بزحوفه المشبّع بعتمةٍ وغيهبٍ وظنونٍ وانحساراتٍ ومصانعَ داخلية تنتج آهاتٍ لأجل التفريغ ، منطلقاً من أنَّ الليلَ حاضنةُ الهواجسِ والهموم واستعادات صور ماضوية تتحرك متهافتة متزاحمة تتسابق على توسيعِ كهفِ الأحزان كان الألمُ يتفاقم والمواجعُ تنشطرُ بأسماءٍ تدنو وتهرب ؛ والبالون المنتفخ أسفل النهدين يمثّل تشويهاً لا بدَّ له من الانتهاء ، وهي لا تدري أنَّ انتهاءه يبدأ من اللحظاتِ القريبة القادمة .

عندما جلست على الأريكة فوجِئت بأنَّها تمس رقعةً مائيةً لزجة . وحين انتفضت بغيةَ امرار الأصابع لغرض تحسّس حضورِ الماء الغريب اكتشفت التصاقَ الثوبِ بعجيزتها وباطنِ فخذيها ، مع حرارة تسيح نزولاً .

لزوجةُ الأنامل هي التي أخبرتها أنَّ قماش الأريكة المُترب ليس منبع السائل إنّما ثوبها ومنفذ فم البالونة هو الذي مررَّ ذلك السيح . اندفعت خارجةً . لم تأبه ؛ ولم يثرها صوت بعض المخمورين لفظتهم آخر دقائق الانتصاف الأول لليل بعدما أغلق نادلو متعهد نادي المهندسين باباً من أبواب الحديقة الواسعة نافظين أنفاس النفور لزبائنٍ مضجرين .

يعافها الشرودُ إذْ يصرّح لها الألم . يأتي مع تنامي الوخزات وتهافت دقائق السكون .. يأتي كنتيجة لاكتشافٍ مرهون لظهور السائل الذي تخلّى عن سيحه متّخذاً شكل الدفق أو الانجراف . ناقوسٌ يدقُّ ابتداءات المخاض ؛ وهي المطعونة باللاتوازن تفقه ولا تدري ما تفعل !.. تدري ولا تفعل ما تفقه سوى أنها تذرع بلاطات الطابوق الفرشي بخطى التعثّر والتمزّق والاحتراق ...

ليلٌ لا يمتلك زمام انتهائه بينما الشخير يُسمع من وراء الجدران ؛ وصافرات متقطعة تشق استطالات الليل لتجاري استغاثات الكلاب المتضورة جوعاً .

كانت الأمُّ قد استكانت راضخةً لزواج ابنها سمير، من غير التي ارتأت . والعاصمةُ صارت تنأى عن مدينةِ الأخت . أمّا الأخبار فتصلها كمزنةٍ تائهةٍ في شساعةِ بريّة ... هيَ .. هي الدروب تلتقي وتتشابك ثم تفترق . تلتهمها الاتجاهات وسط غرابةٍ تفيقُ على همومِ نيّة البحث عن لقمةٍ تؤكد مهمّة اللوك تعبيراً عن البقاء بعيداً عن تفضيل الآخر على النفس .

ذات النكران تلغي نكران الذات لأنَّ شريعة الغاب دائماً ، أبداً تبحث لها عن واقعٍ خاتمةٍ لسني أواخر القرن العشرين ..

الصرخةٌ امتدادٌ صوتي لا غير ..

الآهةُ تطلقها أضلاع آلية تنتهي مع تموّجات الهواء .

التشكّي نغمة نشازيّة أو مازورة مستهلكة ..

أما الشحّاذون فكثرٌ ، كثرٌ ... والمرضُ أقدامٌ اعتادت العيون على مرورها فلم تعد تعني شيئاً .

ما مِن نافذةٍ عون تُشرع .. ما مِن نُسم إهتمام يقيني ظلَّ . فقط ستائرُ اللامبالاة بعد التأسي . تغرق في ضبابٍ غفوي كما لو كانت تسرق انقطاعاً بغفلةٍ من الألم والصحو وأنفاس الآتي المقترب المتربّص ، وهو المجهول تخيفنا عيونه الفراغية فنعمد إلى الهرب . ولكن إلى أين ؟! وكلما ابتعد باتوا في دولاب التقهقر ، منكفئين .

هكذا تريدنا كفُّ الآتي ... نتدرّعُ بالصبرِ فيخترقُنا الجزع ، يُميط لثام تظاهرنا بالجبروت والتماسك ، ويرمينا هياكلَ هزيلة (للهزال مستعمرات تراتبية تنشطر وتستطيل .. تنشطر وتتعاظم . تتمدد نوازع عريان للاستحواذ . نيل ما عجز عنه صغيراً . اشباع ما توالى حتى الكبر) .. تخطيط ! والتخطيط يُبنى على أساس التصميم مع النتائج مسبوقة بالاحتمالات .

رمى نظراته على هندسةِ النافذة العارية فأنتجَ نظراتٍ ليلية تضع بصماتها على خشب الباب المربعات والقضبان المتقاطعة قبلها .. قال : " خلفها ستقف هي ؛ وأمامَها أقفُ أنا . سترتعش مثلَ ريشةٍ متهاوية أسقطها بُعدٌ غير محسوب . سأطمئنها كالمرّة السابقة مع فرق انتظار خَلاء الشارع من كلبٍ قد يهاجمني بعوائه .. سأقول جلبتُ لكِ شمعة تهزم ذيول الظلام وتقطع رؤوس الأشباح حولك .. لا تخافي ، أنا عريان .. افتحي الباب لأشعلها لكِ وأضعها في مكان آمن لا تمس لسانَ النار أصابعُ الأثاث .. هيّا .. تحرّكي . " .

الشفتان اختلجتا ؛ تركتا الفكّين يتصافقان وباطن الكفّين يلتصقان على الحائط تضامناً مع جسدِها المتشبّث بالامتداد الجصّي بين الأريكة والفراغ المنتهي بالباب الخارج إلى الحوش ، و " لا .. لا .. ! " تأتي كالمواء أو كلحظةِ احتضار أحسّتها المحاصرة تقترب فاستسلمت لكلاّباتها تخلصاً من عجرفة المُنتصِب أمامها ؛ المتربّص لاختراقها تاركةً صوتَ ارتطامٍ يُذكي ذات الرعب الذي سببّه كلبٌ ما / ليلة ما . فلم تعرض النافذة غير هيكل فراغ وبقايا تذمّر دفين يتناثر في دواخل الثعلب وهو يردد " لن أتركِ .. لا.. لن " . والـ " لا " والـ " لن " تواصلتا حتى وهو يضرب بابَ الكوخ المتهالك بركلةٍ عابثة ؛ ويدخل فتسمعه الجدّة ، تسأله بلامبالاة العجائز : " هل جئت ؟ "

جاء طارق هذه المرّة واقترب مصممّاً على الدنو ثم التكلّم باسلوب العتاب ، مساقاً برغبة معرفة المآل حيث الدروب لا بدّ أن تؤدّي إلى نهايات . يسألها بطريقة مّن يستدر رأفةً أو يرجو ردّاً : " إلى متى أرهق الخطى على أديم لا اهتمامك ؟ .. الليالي فصّلتها خارطة تشخّص جبال هموم وهضاب حوار بلا انتهاء ، ومحيطات من سوفَ .. وسَ ..وأنتِ ترفلين بالتلوّن والاختفاء رفضاً أو حياءً .. يا زئبقاً عجزتُ عن امساكه . " ... تقطب الحاجبين دلالة الإمتعاض لأنَّ المسافة بينهما وبين أقرب زميلة لها لا تتعدّى اللحظات . خشيت تفسيرهنَّ الغائم في حالة التقاط المشهد . فتى يلاحق فتاة .. طارق يلاحق فاطمة . كلام ستسمعه يتردد في فضاء الساحة المدرسية أو بين جدران الصفوف الدراسية ، وقد يخترق ادارة المدرسة وصولاً لمسامع المديرة .. يسمعها تفوه بتمتمة مدافة بالترجّي : " عيب .. عيب يا طارق ! " .. توقَّفَ !! . هتف هتاف المنتصرين : " ياه ، وأخيراً نطق أبو الهول .. يا لسعادتي . " ... لم تبصره هنيهةَ الالتفات وهي تطبع قدمها على دكّة دخول حرمة المدرسة لأنّه صممَّ أن يكتب لها صحائف جذل وانتشاء ، ويرسم فراديس مستقبل سيضمّهما ؛ تاركاً للخيال غيمة الحرية تسوقه كيفما وأينما تهفو وتشاء .

اقتربت متحاملة ، مجذوبة بخيوط الضوء الشاحب المتسلل خلل شقوق وثقوب الباب الرئيس نافذاً إليها من سكون الشارع . همّت بسحب المزلاج خروجاً لعلَّ الهواء يتخلى عن انحباسه . لعلَّ الظلمة تمزق نفسها فتترك الضوء زائراً يطهّر عطفات الحلكة المهيمنة ويزيل عناكب الانقباض . لم تبالِ بأنفاس الحنين المساقة من أفواه الشخوص ما وراء الزجاج والطارات المستطيلة . لم تعر اهتماماً للقطّة التي سمعت مواءها الذليل قادماً من بين شواخص غرفتها المهملة . ولم تصغِ لرجاء الباب الذي فضّل البقاء مغلقاً خشيةً عليها من وخامة النتائج . انسحاب المزلاج استثار السكون ؛ وأنهى البابُ آخرَ توسلٍ مكممّاً الفم ، تاركاً جيوش النور ضجيجةً تهاجم تشوهات القوام وشعثَ الشعرِ وانكماشَ الوجنتين ، وانطباقَ الرموش المتفاجئة بهذا الكم الثقيل من الضوء . (لملامح الدرب استطالات بهيئة انفتاح مغاليق .. لِسعة العين دُنى تغترف عديد الأمنيات . تساؤلات تبحث عن مرافىء تحقق تفاصيل رؤى جهدَ الجميع للاستحمام بفيض مثولها والتهام قارعاتها النارية تحت ضحكات الغيوم المعتلجة بالرصاصي من الألوان .. تبقى وستبقى ، تستمر وتستمر .. تستـ) .. تتتلقف متن الرصيف تحررّاً .

خطوة أولى ثم وضعُ قدمٍ ثانية ؛ لكنها تنحرف مسحوبة برعب تفجُّر نباحِ كلبٍ قفز من هيمنة ظلام . ظلام بمثابة ظل لجذع شجرة أقرب كالبتوسة .. قليلاً وشاركته جموع ذات الصنف فشكّل ترتيلة نباح يعجز عن التوافق ... دعوة اجبارية للمكوث داخل البيت كأفضل اجراء للتستُّر . كانت قد قررت تدوين خلاصة الافكار بعدما أيقنت بلا جدوى الاهمال . اهمالها له أو تغاضيها عنه . جمعت القصاصات أو لنسمها رُسل الاعجاب والود ، والترجي .

كتبت :

" ألا ترى يا طارق أننا ما زلنا صغيرين إزاء هذا الهول الذي هشّم وأطاح وأردى الأفواج قبلنا ؟.. ألا تقر بوقائع ما نحن فيه من حطام وانكسارات / فوضى وتهالكات / تبعثر وانكفاءات ؟ .. فقط أريدك أن تحدّق في الما حول . بعدها ستجدني ظلاً يحاذي ظلّكَ ؛ وشعاع يتداخل مع بريقكَ .. افتح عينيك ، يا طارق .. افتحهما ! " .

الصديق أبدى الدهشة لارهاصات المفردات واعتلاجها . قال للمرسل إليه : تعجز عن مجابهة هذه الفتاة . انها تفقه ما لم تدركه أنتَ بعد ألف تفكّر وتفكّر .. عليكَ إذاً بشحذ طاقتك الفكرية لتوازيها في السير . " ... وكان المُصغي يتألق زهواً لكلمات الاثنين ؛ ويقرر عزماً على أن يكون ..... يقول : " سأكون .. هذا وعد " .

دنا من النافذة وهمسَ للمختفية أنْ تعالي . " جلبتُ لكِ شمعة ، لا تجعلي الظلام فراشاً لكِ ودثاراً .. سأنيرُها .. أين أنتِ ؟ " . دفعتها العتمة مخلوقة لها قوام المهملات لكنَّ العقلَ في شرود ، والذاكرة هائمة تقضمها مفازات التشتت . تخافه لمنظره الدميم ، وتودّه لكلماته المدافة بالالفة . يقول : " لاتخافي ، أنا عريان وأنتِ بحاجة إلى العون . انظري جلبتها لكِ " .. تقترب على عدم اتزان الخشية .. " ما بك ، أنا عريان ! سأشعلها . ضعيها في غرفتك تضيء المكان وتمنحك الدفء " .. يتحسس خشب النافذة وقضبانها انفاسها الساخنة .. يقول : " خذي . " .. تمسك الاصبع اللدن ، المنتهي بخيط دهني :" هل عندكِ ثقاب ؟ " . هو يعلم أنها خارجة من عقود المُلكية . بعيدة عن كل ما يؤدي إلى الدمار ، سواء جاء الدمار حريقاً أو صعقة كهرباء أو سقوط ثقل نتائجه تفضي لكارثة .. اذن افتحي الباب . سأشعلها وأضعها في مكانٍ أمين . " .

التردُّد أحدُ بواعث الغريزة بعد الخوف الناجز . تنسحب قليلاً فيتوه قرار التردد ، ويحصد الناظرُ المنتظر أولى بوادر القناعة فيفوه بلسان مَن أمسكَ رأس الخيط . انتهز الأملَ الذي نسميه فرصة .. " هيا .. هيا .. افتحي . "

تضيعُ في الظلام ....

يفاجأ أنا عريان بالباب يُفتح . يدخل بطريقة المتعاطف القادم من منابت الرحمة لاسداء معروفٍ حميم ... يشعل عود الثقاب ويغذي خيط الشمعة باللهب الذي يقوده إلى الغرفة . تبتهج الناظرة وهي نجاة لمرأى الضوء يمسح الموجودات . يثبت قوام الشمعة في مكان ويستدير ليطعم المستأنسة بالنور نصف ابتسامة ، عارضاً نظرات من اعتاد اللقاءات . يجد التفاصيل بحد الاكتشاف . الأثاث بانتصابها تكويناً لخارطةٍ . يزرع العين تتبعاً ، غير مُصدِّق الدخول والتطلع لأنّه المنبوذ دائماً .. مَن كان يَحسب ليومٍ يبُصر فيه أنفاس مَن لا يتوقعهم يأتوه حتى في تِيه يقظة ؟ .. مَن كان يصدق أنّه سيضع حقيقة الاطلاع ملمساً بكفّيه ؟.. يكتم البهجة ثم يتحرك خارجاً .. " يكفي هذا ! " يقول ، تاركاً الباب الخارجي يغلق نفسه متحسِّراً للأمر بينما تتيه الوحيدة وهي نجاة مع تفاصيل الأجواء النيّرة . مشاهد جفتها منذ أشهر بعيدة كانت تراجيديا الجسر خاتمة له . تملَّت الأشياء تنبثق من جوف العتمة . طالعت الصبية المبتسمة خلف الجدار الصقيل المحاط بزخرفة المستطيل الخشبي ، وسمعتها تبارك الظهور بعد الاختفاء . تتَّسِع الابتسامة مع امتداد احمرار الخدّين بتأثير اشعاع لون حَب الرمان الذي يغمر قماش القميص ذا الياقة البيضاء والقرتيلة الفراشيّة التمظهر . أمّا عريان فقد رفع شارة الابتهاج ويافطة السرور موقناً بانتصارات آتية ، ولم يركل باب الكوخ بازدراء هذه المرّة . وحتى ردّه على العجوز جاء طريّاً سمِحاً ما جعل حفيظةَ الجدّة وفضولَها يُستثاران .

حين ترددت تقاطعات صافرات الحرّاس كاشارة لتبدّل وجوه تتبعها خطى بنادق كانت أوقات زمنية تتبخر رغم جثومها من جسد الليل الساري ... رويداً ، رويداً يتعالى السكون . وشيئاً فشيئاً تنبجس مجسّات الألم .. تفاوت عكسي ؛ حركة تضاديّة ؛ خروج عن المألوف والمتداول منذ بضعة أشهر . تستعيد المتشرنقة باسلاك عدم التثبّت الارادي الذي نطلق عليه جنوناً أو فقدان تملك سيطرة بغفلةٍ من الشرود مشاهد مشرذمة دون التمكّن من التساؤل إنْ كان ما يأتي ذكرى أو تحرّكاتُ غيبٍ يمتطي صهوةَ جوادِ المجهول ، لأنَّ الذي تتحسسّهُ سيحاً يدخل من باب الغرابة وعدم الحصول مُسبقاً ، خصوصاً وهي تشعر بهذا الانسراب الوئيد ساخناً ، متجاوزاً كعوب القدمين نزولاً .

التحسسُّ تحت الخراب العميم يرعبها . ورفساتُ أقدام منفلتة تمارس عبثها داخل البالونة المشحونة بالوجعِ والضباب . تُفجِّر صرخةً كبادرة يقينية لاسكات الرفس أو استدعاء أطياف العون وربّما انتاج ترنيمة خاصة بها مستلّة من سيمفونية قائمة على أساس معادلة أزلية : كوميدي / تراجيدي .. ضحك / مأساة تجاوزاً لبرزخ الحياد ... تقول مناهي ، هامسة لي أنا الكاتب : " عندما دخلت عليها ذلك الصباح أذهلتني التكويرة الغريبة ، يبرزها الثوب الحنّائي . مددتُ اليد وبعين التهجس

لمست أنامل كفّي بروز البطن وصلابته ..أسألها : " ماهذا ؟! " فلا ترد .. " ما هذا ؟ " فلا تعطي للأمر بالاً . فقط تترك للبريق الذابل على هدول العينين مهمة بعث النطق . تستدير مشيحةً عنّي لائذة بفضاء غرفتها وتستنجد بالمرآة . يسترعي تتبعي بقايا جماد شمعي .. أسألها : " ما هذا؟ .. من أين ؟ مَن يجلبها لكِ ؟! " .

وتُطلِعُها ليلةُ التخفّي والتنصّت على خديعة عريان ! يدفع عريان بقايا القارورة في جوفه ؛ يرمي بها إلى النهر وينهض .. يسحب شِباك الرصد ، ويحصي خلاء الشارع ثم يأمر القدمين لتنتقلا به عموداً متأرجحاً حتى النافذة . ينده بطريقة الهمس الدفيء فيُظهر الظلام شبحاً انثوياً يتولّى مغامرة سحب مزلاج الباب ... وهناك ! .. هناك سيتواصل سِفر الغواية بعدما ابتدأ قبل أربعة أشهر" ليلة الطعن بكلمات الخديعة " .

كان سبتاً مشهوداً ، غاصت بترسبات دقائقه مأخوذةً بلذاذة غير مُجرَّبة اثر حركات يدين دافعة أعضاء جسد متوترة دلالة الرفض ، إشارة عدم الرغبة في تلويث صحائف طهر ناصعة . لكن المتعاطف القادم على اسداء معروف يُقدِّم وجه غوريلا ، ومخالب ضبع ، وجثامة ديناصور . يقبض على اليدين ، يكمُّ الفم ، يمارس ازالة العوائق من ملابس خارجية وداخلية مصحوباً بالرفس والضرب والتخديش وكلمات تهديد مدافة بالقتل حتى الموت / بالفضيحة / بحرق الموجودات ... كان الشر في العينين ؛ والحقد مُسال عبر الكلمات أو الانفاس أو رائحة العرق . ومع تسارع عجلة اللحظات تتوقف مفاصل التنازع . تسترخي المجسات فيستحيل ضوء الشمعة كرنفالاً دبيبياً ونشوة مائية ، رحيلاً إلى جزر مُعلّقة بين سماوات الحلم وأرضين اليقظة .. ولم تفه العائدة من محيطات اللذة غياب الفاعل إلا وصقيع هزيع تشرين يكلّس أطرافها ويزرقها برجفات متوالية تجبرها على النهوض واحصاء أشباح الظلمة بعد آخر تنهيدة من حياة الشمعة . .. ولم تكن لتدري ما حصل لها لولا بقايا النداوة التي ما تزال تبلل تلك البقعة التي لم تعد حصينةً ما بين الفخذين ، أسفل مثلث الغواية .

وهناك .. هناك أيضاً ؛ تحت فيء يكفي لزمرةِ أشخاصٍ لهم متانة لافتة كان هو منطرحاً على ظهره يتأملُ سوء فعلته بعدما أبصرَ البطنَ يكبرُ ويكبر فلم يخشَ العاقبةَ . ولا قالَ ماذا ستفعل هي أو ماذا سيفعل هو . فقط استمرَّ سادراً في الغي . يقتحمُ فراغَ الليل ليؤدّي رداءةَ صنعته اليومية غير آبهٍ ؛ غير حاسبٍ . عيناه تتبيّنان كلبةً تنقلُ جِراءها من اخدود بين أجمّة كانت الاقدامُ قد اقتربت منها فلم تُعد آمنةً . تخاف عليهم ،، تسعى لإدراك مكاناً يؤمِّن لها حرية الارضاع والرعاية . عريان يضحك . يسحب يداً مطوية تحت الرأس بينما يترك الأخرى تتولّى حملَ الرأس الذي يرتفع بغية توجيه نظر العين نحو الكلبة . يلتقط حجراً وباندفاع حاقد مشرَّب بالسخرية يرميها ، فيسقط المخلوق الصغير المحمول نتيجة المفاجأة غير المنتظرة . عواءٌ مبتور يصله ، ثم حملُ الوليد اللحمي غريزياً يشاهدُ مختوماً بغيابٍ عن أنظاره .

وهناك .. هناك أيضاً كان هو ، بالرأس المسترخي على وسادةِ التخطيط الدهائي يمضغ شهدَ اللعاب الذي امتصه من شفتيها اللتين فقدتا ميزةَ الانطباق وتركتا الزمام لفمه يسحب ما يحلو لوجوده . يستعيد بنشوةٍ ثأرية أو بعفويةِ انتقامٍ بعد التصميم حكاية الانتصار ، وهو دائما يُعلن انتصاره حتى في أشد حالات الخيبة والمذلّة التي يلاقيها نأياً عن تقدير الخسائر بدءً من استخراج علبة الثقاب من الجيب حتى سماع احتجاج الباب المتمثل بتمام انطباقه .

لم يهدأ هياجُ البرغش تلك الفترة المسائية ؛ ولم أهدأ أنا الذي أكتب روايةً تدور أحداثها في مدى زمني لا يتعدّى الساعات ؛ والصراصرُ استمرت تمارس فعلَ الصيرورة عبر الصرير التواصلي بينما شواخصُ أبي ابريص تتوزَّع أماكن تسهِّل عليه مهمة الالتهام والتغذي بشهيةٍ زاخرة تعويضاً لجوعٍ هدمَ عديد البُنى الحركية رغم تدخُّلات النُسم الآتية بصورةِ تيارات مبتورة تستقبلها الموجوعةُ بشهيقٍ طويل حتى لو فجّر ألغاماً مجسيّة من ألمٍ تحاول تحجيمه بتجميد الحركة وتثبيت الاعضاء .

تلك الليلة صرّحت مناهي للرجل الزوج عن تراكمِ انقباض نفسي ، هي التي حاولت جاهدةً التكتّم بسعةِ حدود المقدرة ريثما يأتي الحلُّ ؛ مع أنها تعلم أنَّ حلاً كهذا يأتي من باب الاستحالة أو المعجزة ... يقول لها : " آهاتكِ تلفح وجهي فابعدي فمَك عنّي ، واختاري وسادةً ثانية . هذا صيفٌ حارق لمهجنا !" . فتقول :" دعني أستعين بالتأوه رغم أني لا أريدك أن تشاركني همومي ؛ يكفيك هَمَّ متابعةِ أختامك وآلهتك التي ما وضعت لمشاكلنا حلولاً . لا تفكّر إلا في الماضي بينما همّي يتوجس القادم ." .. آهة تُكسِّر صوتها فينتج صدرُها نشيجاً منفلتاً دون وصايةٍ منها لأنَّ التفكير بنجاة أشد من أن يُسيطَر على كلاّباته الجبروتية أو تُهمل ردودُ أفعال أسبابه .

وراودت نجاة رغبة الصعود إلى سطح الدار محتسبةً فضاءَ السطح واهب الرغبة في الاطلاع أو التذكّر أو النسيان (نسيان معادلة الضجر بتتبّع عاداتي لمسرى النجوم ومناغاة القمر) . ولا تدري أنَّ درجات السلّم ستقودها نحو متاهةٍ من عدم المقدرة والسيطرة ثم السقوط تدحرجاً بمفاصل مفككَّة وأعضاء مهتوكة ... لاح لها نداء يختلط بنداء ، مخترقاً بنداء .. نداء .. نداء .. نداء .. نداءات متشابكة تتواشج بنغمة توسّل تارةً وتارة بتعبير (ليت) و (لعلَّ) منتهية بـ (لولا) .. نداءات ميَّزت بفعل التشتت الذاكراتي صوتَ بهيجة وحميد وكريم ، وصوت الجدّة التي سعت كثيراً لتذكّرها وتذكّر ملامحها فلم تفلح إلاّ بالسقوط في انحدارات الفعل لأنَّ الذكرى تغدو دخاناً بمرور الاعوام خصوصاً إذا كنّا في عمر السنوات الخمس تشظّياً ..

صاحت بهم : " سأصعدُ إليكم .. لماذا لا تنزلوا إلي ؟! " .

فسمعتهم يهمهمون : " سننزل إليكِ .. لماذا لا تصعدي إلينا ؟! " .

وكان طارق يصعِّد من قراءاته كيما يتمكن من فَهمِ فحوى الرد . يقول : " هذه حبيبة تفوق الكلمات التي أروم سكبها على ورق الرسائل ، فكيف لي بشيء أقدّمه مرضاةً لها ؟ ومن أين لي بالمَلَكة التي ترفعها إلى تخوم توددِّها لي ؟! "

قيلَ له : إقرأ شعراً .. إقرأ .. وأقرأ ، فليس غير الشعر يفتح مغاليقَ اندفاعاتك ، ويمنح الوجدان مهمةَ الانطلاق تحرراً نحو البوح .

ففكّر : " أخشى ولوج هذه المتاهة التي ما وطئ مبتداها أحدٌ إلاّ وقذفت به في بريّة الضياع والخَبَل ."

وفكّرَ أيضاً : " لو أعانني الشعر وصرتُ شاعراً افتراضاً هل باستطاعتي ازاحة ركام رؤاها المتضببة ؟ " ..

وأيضاً ؛ أيضاً فكّر ثم قال : " ومّن يضمن يقيناً بأنَّ اكتساب هوية الشعر كافية لكسب قناعتها ؟ .. يبدو أنني إزاء حبيبة تتمترس مع الدهاء ، وراءَ أفق غائم . لا بدَّ من سؤال العم وفيق لعلَّ مباخرَهُ وأحجاره تقود نحو الرسو الختامي .. هيّا ! "

فيلجم من قبل الصديق : " إلى أين أيها المجنون ؟ هل تراه كما كان ؟ الأشياءُ ما عادت بأماكنها ؛ والأماكنُ ما برحت بأشيائها . فلو كان قادراً وفقَ حساباتِك لاستطاع معالجة قريبته المسلوبة الفعل والتصرف ، ولعالج عقله الذي يتبخّر شيئاً فأشياءً . إنّه على مشارف الجنون ؟ ".. آ .. يقول : " نعم .. نعم . الأكفُّ ما عادت بأناملها ! ما عدنا نرى الأشياء بمثل ما يلمسون . ثم أنها مخلوقة من العسير عليَّ جمعها . كلماتُها مزّقت الكثير من أوراقي ؛ مُذْ قالت بعض أسطرها (كُن كما أشاؤك لا كما ترسمني ، فنحن نخوض في غمار غيهبٍ مجهول . دخلنا نفقاً غائراً عتيماً لا ندرك منتهاه إلاّ بشموع رؤانا .. دعنا نجهد باحتراقنا لإشعال بعضها .) .

وكان عريان من على يقظةِ دهائه الحثيثة يسمع صراخاً عذباً / أنيناً منغَّماً .. صيحات كالنشوة الدافقة . يخال ذلك غناءَ غجرية أمام أخرى . فردتا ردفيها تعلكان باسلوبِ خلق الشبق الدامي (دوماً يُطربه الغناء الغجري فيما يعفُّ عن غيره

.. دوماً لا تغمر عينيه غير ملامح الغجريات . فيهنَّ يرى تاريخَهُ المتأرجح بين نزواتِ الأمس وحَبكِ الضغائن . يرى أفقاً تلطّخه ريشةُ الألوان الوسخة فيعجب ، ويدهش ثم ينتشي) .

مرّةً افتقدته الجدّة . كان ذلك في ساعةِ ظهيرة من أيام آب اللاهبة . تيبست شفتاها وهي تبحث عن الفتى المسكون بالضياع ، فأينَ وجدتهُ ؟ .. صاح بها : " أنا هنا ! " . كان عند سياج المدرسة يتصبب عرقاً لأنّه أشعل ناراً وسط الصهد يشوي بصلاً لأنّه أشتهاه . قال : " اشتهيت ففعلت ! " فاكتأبت الجدّة إذْ وجدت فيه مستقبلاً تعجزُ التساؤلات والصفنات عن تقريبه .. ضحكت وتأسَّت .

يقول : أنا عريان ؛ الليل جنّتي . "

ويقول : " يا لحزني الذي لا يُطفأ إلا بأحزان الآخرين . "

ويقول : " تُرهقُني العيون الوسيعة فأسعى لإمحاء تطلعاتها . "

ثم يقول : " ومع ذلك تبقى نجاة حرثي رغم القفز باتجاه الأُخريات . "

(ويبقى عريان مهيمناً يجرح ذاكرتي أنا الكاتب فيثير حرائق الروح ؛ ومضطرّاً ألتجيء إلى اللغة مستعيناً برموزها درءً لسكاكين أنظاره ، هروباً من الانحياز الذي سيواخذني عليه النقّاد باعتباره مثلبةً أخرجتني عن الحياد المُفترض .. وهو عريان يعرف تعاطفي مع نجاة من باب الوقوف مع المغلوبِ على حاله . لا بدَّ لي من الإصطفاف بجانبها لأنها الوحيدةُ المرمية مبعثرةً تحت أبصارِ مَن لا يهمّه الانسحاق . أتبيَّن دمعَها / ألمَها العميم / تهالكَها الكثيف / أيامَها الغاربة بعد عزٍّ طويل / انعزالَها المُجبرة عليه انجباراً / خرابَها المُهين .. أرى المجونَ والظنونَ والغرق . أرى الهابطين / الصاعدين / المرابطين / الموتورين / الراكعين كَذِباً / المتألمين زيفاً / الرائين موتها / المنتظرين تكفينها / المتهيئين لتشييعها / الراغبين شغفاً لدفنها ... أرى ؛ وأرى ، فأرى .. آ .. قلبي عليك !) .

تشعر بلزوجةِ الفخذين وتقول :" دم ! " .. شاهدَته غب حضورِ المغيب عندما دخلت المرحاض باحساس مشيئةِ التبوّل . تفرج الساقين وتجلس فيتقطّر السائل أحمرَ . تباغَت به فيدفعها للنهوض ونسيان الدافع أو الألم حيث الرعب يتمثل غيلان هائلة هدّارة . سعالى تفخُّ فاتحةً أشداقَ الإلتهام تجسّمها الجدران ؛ تنفثها الشقوقُ تسيلُ من التعرجات . والبابُ صامتٌ مع صمت الجدران وسكون الهواء المتخثّر .

القدمان ثقيلتان أتعبهما الدخولُ والخروج . تلفظها غرفةٌ لتتلقفها غرفة . يطردها جدارٌ فتواجه بفراغ . الصريرُ يعود . الأزيزُ يستمر . تنتهكها الصفّارات الخارجية فيما السائلُ يسيح ، ولزوجةُ الفخذين تشتد . انهاك ! انهاك ! انـ.. هاك . يندهه بها البساط من جوف غرفتها . تدخل زاحفةً بعجيزةٍ يضخّمها الألم . تستلقي على ظهرها تاركةً الفخذين ينفرجان لحظة تناقض حثيث بين السكون والصراخ . تداهمُها نسمةٌ رطبة ؛ زفرةٌ من ملفوظات النهر تفحمها بالاختناق . تتمنَّى الضياء فيخبرها الليل بدنو الانتهاء ؛ لكنَّ الألم يفرض جبروته بتسارع يفوق الاحتمال . منابت خروج ومطاعن سكاكين راسمة مخالبها الغائرة .

لا تدري الضائعة بمن تستنجد ، فالجميعُ سالكون دروبِ التيه والعتَه . والوجود مغلَّف بعماءِ المتناقضات . لا شيء ينم عن افتضاض الحقائق التي بمثابة واقع محتمل .. حقائق ما زالت مُدانة ؛ حبيسة الخداع البشري ؛ أسيرة الانعتاق والدهاليز والمتاهاة المرسومة بدهاء . أسيرةً تبقى وتستمر أصابعُ المطر تحت ضحكات الغيوم المشبّعة بالرصاص : تبقى .. وتبقى .. وستبقى ! . تنفجر الصرخة دويّاً يشقُّ أستارَ الاهمال الصلِدة . تصير ذرّاتُ السكونِ بيتاً هائلاً من فناءات ومجازات وغرف ضجيج تتنامى رغاويه ، وتعلو .. تعلو .. تعـ..لـو !

أكف الصرخة تلطم خدود المسامع ، موقظةً الكوابيس وأحلاماً بغيضة منشطرة . توقظ أفواه ضجر تتساءل عن سرّ! هذا التواصل الصوتي المنفر ... ذبذبات تُنتج رنيناً متواتراً يتَّسع.. يتّسع ! يطرق الجدران ؛ يفككُّ شُرفات الأسطح ؛ يقضُّ مضاجعَ الأبواب ؛ يزيحُ الأثاث من أماكنها ؛ يقلبُ قدورَ المطابخ ؛ يُسقِط الأواني من رفوفها ؛ يَخلع الأثواب من أجسادها ، والصمت من ثقوبه ، والصور من مسامير تعليقها ، والأوراق حتّى الأوراق من أغصان أشجارها ، والطيور من مساقط تواجدها ، ونحنُ من عهرنا الانساني .. يا لعهرنا السرمدي !

تتّفجّر الصرخة ..

فتخرج دافقةً حشودُ النمل . تزداد فعاليةُ البرغش في محاربة رقصةِ الموت بانتظار هجوم السحالي . تخرج الكلمات مخضّبة برياء التساؤل : ما هذا؟! .. ما ذلك ؟! .. من أين ؟! .. ولماذا ؟! ...

مسحوبةً بانشداد الأب ودهشةِ الأم تفيق فاطمةُ وألسنةُ الاستفهام عن السبب والجدوى . يفيقُ وفيق فيجد الزوجة مناهي تحت سطوة القلق في محاولة ايقاف الدمع المجنون على الوجنتين الذابلتين مقلّلة من تخديش الوجه ، نأياً عن اظهار دلالة واقع الفضيحة بينما عريان يغطُّ تلك اللحظة بنومٍ لم ينمه منذ قرون .

مدّت كفّاً تتلمّس بأناملها رغبةَ مواساة أو تساؤل من باب الشفقة أو الإعانة . خالت وهي نجاة أو سمعت حقّاً أنفاساً تحتشد عند الباب . هل هي الأم والأب والأخ والأخت ؟ .. هل هي مناهي تقود وفيقاً أم فاطمة تبغي تحويل سؤال النظر إلى استفهام النطق عمّا بها ، وما حاجتها ؟ .. لماذا لا يجرؤن على الدخول ؟ .. تقول بصوتٍ خافت بائس : " تعالوا ! " . تنده واللسان يتعثَّر بجفافه .. " تعالوا ! " .. تنده بهم كيما يمدّوا كفَّ التعاضد انتشالاً من كثافةِ الغبار والركود والتغاضي . " ما لكم ترون غرقي وانقطاع أنفاسي ولا تفعلون شيئاً ! " (وأكرر أنا الروائي : يقولون عندما تدلهم الخطوب عليكم بالصبر فصبرنا وصبرنا وصبرنا وصبرنا وصبرنا وصبرنا وصبرنا وصـَ.. بر .. نـا حتّى عابَ علينا أبناؤنا أعمامهم ! سحقاً أيها العرب العار !) تأخذُها قبضةٌ حديدية كلاّبية الأنامل تجرّها عنوةً بغطرسة يخامرها شعور الغطس والقوّة في يمٍّ قابضٍ للأنفاس ، هاصرٍ للروح .

يضيعُ الرجاءُ ، وتتلاشى خيوطُ الأمل في السماع .. فقط مفردات لا تفقهها . تطبعُ نظراتِها على لافتة الذهول المسروق في غفلةٍ من الألم .

تعود إليها لحظةٌ خاطفة من عنفوانِ فتوتها الهاربة : بين جدران تتحلّق على طلائعِها البهيجة رؤى من سرور عائلي حميم .

ثوبُها المائي المشدود يعكسُ جغرافيةً مثيرةً للشم ، مُلفتةً للحس . ارتفاعاتٌ وانخفاضات / التواءات وانحسارات ؛ وأمٌّ تنتبه ، تلاحقُ فوراتِ الانسجام . غزالةٌ آتية من غزالةٍ . وأبٌ يخفض عينيه بعد نظرةٍ برقية على الخارطة الفاتنة .. يتمثّل أمام الذاكرة وجهُ ذلك السجين السياسي المُساق مع مئات السجناء السياسيين النيِّرين في يومٍ من أصياف الصهد التمّوزي من العام ١٩٦٣ نحو " نقرة السلمان " والذي سقته ماءً بقدحٍ هرعت به من غرفةِ أبيها في المركز لتقرأ في نظراته لهفةَ الافتتان بعد استطالةِ التطلّع (من أينَ جاءها الآن ؟! .. وكيف ؟!) .. رآها تلك المرَّة ولم ترَه بعدها إلاّ غب أعوامٍ متراكمة ، يوم جاءَ بعينِ العائد يطالع خارطةَ البيت الخارجية . أبصرته بمنظار المُمزَّقة لا برؤية الفتاة المُنتظِرة .. شاهدته ولم يشاهدها . نهضَ لديها نزوعُ الخروجِ إليه والتكلُّم معه . نزوع أن ترتمي على صدره هاتفةً : " خذني معك ! أنتشلني من هذا الهول . أنقذني بحقِّ تلك اللحظة الانسانية التي وقفتها بجانبك ! " . لكنَّ التشرذم العقلي أعاقَ المهمّة فتراجعت خذيلةً ،

كسيرة . قرأت صدى عينيه من خلفَ النافذة حيث تنتصب كتمثالٍ يقرأ شغفَ السؤال عمّا حدث وكيف آلَّ المآل إلى هكذا أمر .

تراتبيةً كانت الصرخات ، تكفي لقصِّ حكاية من باب الأعمال السريالية .. تراتبية بفعل خرائبية هذا البيت الذي غدا بعين الآخرين طللاً ؛ وبعين أخرى لجّة خراب أرعن .

يحتك ظهرُها بوبر البساط فيعلن هذا احتجاجه بنوابضٍ غبارية تُداهم الأنف . بيدَ أنها تستمر في الحكِّ والتراجع لأنَّ الألم شغّل آلات تفاقمه فلم تنفع انفراجةُ الفخذين سوى شعور شبيه بفالقات الرعب ، آخذاً بالاشتداد وشيء تتخيله دماً شرع يسيح .

كانت تبكي !

كانت الدموع تنهال من مقلتين أتعبهما التحديق في الفراغ . وغشاوة ولّدتها كثافة الدمع سرعان ما انجلت عن تيّار وضّاء يمتد من حدقة العين إلى الصورة المُحنَّطة على الجدار التي شعّت فجأةً ؛ أعلى مرآة التشوُّف الساعاتي ... الفتاة الربيعية رسمت لها تباشير ابتسامة ، فتأوَّهت هي : آ .. نجوى .. نجوى .

هبطت الفتاة بعدما أتمّت نزع الاطار ، متخليّةً عن جفافها .

قالت : " آ .. نجاة ما بك ؟! "

يتندَّى الشعرُ الجَعِد بفعل العرق الناهض وغربةِ الروح . والتكوُّر الصلب ينازع للانسلاخ عن الجسد الذي أرهقه لتسعة شهور عصيّة .

أعادت السؤال : " ما بكِ .. نجاة ؟ "

ردَّ الصوت المتهالك : " نجوى .. نجوى ! تعالي ! "

بدهشة التفحّص تخاطبُها الفتاة " " آ .. مَن يصدِّق أنكِ نجاة ؟! .. أتذكرين . كانت أشبارُ المسافات بعيدة نقظمها بلهفة أقدامنا الصغيرة ؛ وشجر الكالبتوس أمامَ البيت لم يكن بالايقاع الشاهق . لا تكاد ظلالُه تكفي لاحتضان قاماتنا . أرمي قرص الأمنية فينشطر التحقّق متراكماً في كفّي . تتلقفنا الأعيادُ ؛ وننام على حلم ارتداء ثيابنا الجديدة . تريدني بهيجة طبيبةً ؛ ويريدني كريم مهندسة . كلٌّ له غاياته ومراميه التي لم أفقه مبرراتها سوى بعد أعوام ، يوم قال قلب بهيجة تعبت ؛ فتوسَّلت به أن لا يخذلها لأنَّ العقود الأربعة لمّا تزل تجري ، والجسد بتعرّجاته وانخفاضاته وتعاليه ما يزال يحتفظ بنكهة الطراوة ، والأولاد ما برحوا صغاراً . مَن يرعاهم لو تعثَّرتَ أيها القلب ... وعرفتُ أنَّ لكريم طموحَ أنْ يعلو اسمهُ من خلال ابنته فقد لهثت الحياة ولم تهبه فرصة حفر الاسم على آجرة التباهي .. مَن يصدِّق ؟! ... بِكراً كانت الأحلام ! نزرعها بفيض دهشتنا . أقواس الشموس تفتح تضاريس خطانا الراكضة صوب المديات المجهولة . ماذا نفعل كي نطبع عيوننا اكتشافاً . فالآفاق مغرية والدواخل ضجيجة بالرغبات .. هيّا ! " .

وتأخذها شساعاتُ الرؤى : المعلّمة فهيمة طالماً ردَّت تحت التماعات التفّاحات الحمر والصفر الملتصقة على الحائط ، المرسومة في مستطيل المقوّى الأبيض إنَّ لنجاة مستقبلاً أراه ما وراء أستار الغيب ، مصباحاً وهّاجاً في ليلة ما قبل بزوغ القمر بهيئة هلال . التلميذات يرفعنَّ وجوههن فتعلوا الأنظار عن السبّورة أو تواريات أسطر الدفاتر لتصطدم بابتسامةٍ يرسمها (فاضل) الملتصقة صورتهُ على صدر الطائرة الورقية في قراءة الثاني الابتدائي وهي تخترق ستائر الهواء المهفهفة عبر الخيط بيد (شاكر) الملتفت وسط المربع الورقي للتلميذات اللاتي ظلَّ اسم نجاة يرن ، ينسكب في أقداح مسامعهنَّ .. تحتجُّ واحدةٌ تتقدَّم الصف : وأنا ؟ .. قليلاً وتجدد أخرى القول : وأنا ؟ .. وأخرى : وأنا ؟ .. أنا .. أنأ ..

تقول نجاة : " اسكُتي ، يا نجوى ! ما لكِ تضيفين ملحاً !! أما ترين الجرح يكتفي بفوضاه ؟ .. كانَ عليكِ أن تستبدلي قلبَ أمّي بقلبِك لتمنحينني راحتي الأبدية كيما تبقى أمّي تصنع طرقات عائلة كريم / أبي بلا تفكك ولا انفصام .. بغير ضياع " . طريق يشكِّل مستقبل كريم بحساب أنَّ كريماً كان سيغيّر هواءَ شهيقِه فلا يصل إلى حدِّ الكمد ثم الرحيل . وطريق ثانٍ تدفعه على لوح الآتي لتقدِّم حميداً على بساط سعادته الممتطية ظهرَ الأمنية ، فيما ثالث لافتخار لتجعل من أجزاءِ نهارهِا تقاسيم لخطى أولادٍ تتوسَّم فيهم حفظ الجذور واستمرار النهر .

تطبق الأجفان ...

وقع أقدام أو ضربات كف على جدار هو ما سمعته المبتلاة بالألم والهجر والنسيان وكلِّ شيء .

تنامي حيرة تشهق أمام فتاة الحلم .

وبتبدُّد خيطٍ أو خيطين تعود الفتاة إلى مربّع صورة الحائط بينما تعود نجاة تعبّر بصوت ألمها عن أنين حدث بامتداد دقائق مبتورة وارتفاع نسبة تعرّق يأخذ شكل سيولٍ انسيابية . مواء خافت يقترب . تعزّيها العينان الفسفوريتان الدائريتان . تخالهما تنشطران عيوناً تليها عيون . عيون تطرد عيوناً . عيون تأخذ حجم فقاقيع غسيل صاعدة هابطة .. هابطة صاعدة . عيون انطفأت يوماً ما ، أغلقتها الجفون . عيونٌ جمريةٌ تضجُّ بالاحتقان رافضةً غضبى لمخلوقات لا تميّزها . عيون سائحة تُبحر في فضاءات السنين الغابرة لفتيات عابثات نسيت أسماءهنَّ . عيون لوجوهٍ مألوفة لا تُسعفُها حجيراتُ التذكّر على التشخيص .

ومن بين الحشد الكروي تصالبت إزاءها عينان ذئبيتان .. أطلقت نحيباً راعشاً لتحديقها ؛ وسرعان ما تلبستا وجه عريان فانتفضَ الداخل بطنها برفسةٍ أنتجت صراخاً متواتراً . والباب صامت يزاحم ظلمة تحدّبات وتقعُّرات الحائط ؛ ولا مِن مُغيث يطرقه ... وآن زادت ايقاعات المواء واقترب التشبّث ، احتكَّ الجسد الناعم المخمل بصفحة وجهها ؛ وسمعت لغةَ القطّة تقطر تواسياً . لحسٌ من لسانٍ طري صغير ببشرة دهناء . تعلوها الأنفاس ساخنة متسارعة ؛ هي بمثابة تأوّهات ..... شرع الرفسُ يتّخذ درب الخروج ، رفضاً للبقاء . وبهذا طفق الألم هو الآخر يسلك اسلوب التفاقم . سكاكين تغرز أنصالها .. رماح تهتك مصدّات الجسد . تخبّط جنوني علا بلا هوادة ؛ دافعاً سائلاً جلاتينياً عبر منفذٍ تستبيحُهُ التقلصات ، الارتخاءات ، التشنجات ... الفكّان انطبقا بتعاظمٍ . يفصل احتكاكُ صفّي الأسنان طرفَ الوسادة الذي ملأت به فمها كفعلٍ تبغي من خلاله تضئيل قدرة الوجع .. هل يكفي ؟!

تكتّل العرق ..

الرقبةُ احتقنت . اختنقت الصرخةُ بينما هبَّت مجسّات الارتعاش ترشُّ فعلَها على انشدادِ الجسد المُنتَهك . جحوظُ العينيين بلغَ هياجَه . وكانت أصابعُ الكفّين تتقلص ؛ والتشنج يحفّز الأضافر لتغرز حافاتها الحادة في نسيج البساط . تصلّبَ الفخذان وبلغ الفكّان ذروة انطباقهما فلم يعد لقطن الوسادة وقماشها واجب فصلهما ..... وبومضةٍ منفلتة من عنق قارورة اللحظات أحسَّت كما لو أنها أُفرِغَت جميعاً ؛ وبشيء ما ينزلق مع دفقةٍ هائلة من هواءٍ لاهث أطلقته الأشداق . تردَّدت لمسمعها صرخات حادَّة مبتورة ، ذكّرتها بولادات كانت تحضرها صغيرةً مع أمّها أو عمّتها . ترى مخلوقاً يُدفع ومخلوقةً شهقتُها تُعلن ولادةً جديدة لها ، و (لكأنك ولِدتِ من جديد) . تسمع المُحيطات يطبعن الصلوات أو تمتمة المغفرة ... وهي نجاة تستفيق بعد هُنيهة انقطاع على صرخةٍ .

الصرخةُ تنمُّ عن وليد . الحبل السري يستمر مشدوداً ، يربط الجسد العائم في الضياع مع أبجديات الكائن المُتخَم بالفراغ . يربط فقط الأعلى بانهيارات الأسفل .

الصرخة : إباحةٌ منفلتة ؛ غرائز تجتث عطبَها ، والعطب يزرع أذرعَهُ . جناحا الكلمة تصطفقان بقوادمَ متكسِّرة وبريشٍ ملتهب .

فالتةٌ هذه اللحظات . غائمة ارتحالات العينَين تمدُّ الكف لتلحقها الأخرى . تقطع الحبلَ بمحاولة السحب من الطرفين . الألم هنا يتضاءل رغم كينونته ، قياساً بالألم الماضي . ألمُ الدقائق السابقة أو الساعات المنتهية . صرخات مشدودة تنمُّ عن فمٍ ضئيلٍ تؤكِّد صيرورة القطع .

الصرخةُ تتبادل موقعَها . تستعيرُ وجودَها لفتحةٍ أخرى .

الصرخةُ تسيل ..

ما كانت صرخةً بشرية ؛ ما كان الوليدُ طفلاً . كان الغموضُ سديماً يلفُّ الهيكل الذي بهيئةِ من لا هيئة له .. يحمل ملامحَ المسوخ ، هديرَ الزوابع ، جنونَ المعتوهين . الرأسُ باستطالةٍ مهولةٍ يعرض ثقبين بلا رموش ، بلا أجفان ، بلا حدقات تنفي عن الفم الشفتين . الأسنان بارزة . صفوف من أنياب تزاحم رصوف القواطع .

مالت برأسها لتتفرَّس بما استطاعت في كيانه ، فأرعبتها أذرعُهُ . أذرعٌ لا تمُت إلى جسدٍ بشري بوصفٍ .. لا بشرة تمنح القبول . لا أنامل الكفّين أو القدمين . بل لا يمكن إعطاء هذه الاستطالات سمةَ الأطراف (أحدس أنْ سيكون وبالاً أو وباءً مقضُ المضاجع ؛ مُرهِص الفواجع . صرخته لها مثالُ ريحٍ سموم تنمُّ عن ابتداءاتِ كوارث أو تنبؤاتٍ لزمنٍ مهول بحساب مَن يكتب ليؤرّخ .. يسمع ليحكي) . تموءُ القطةُ صراخاً ، صراخ الرعب نتاج الرؤية .. هذا المخلوق تراه قميئاً لا ينتمي لفصيلةٍ ألِفَتها . تكشِّر أنيابها ردَّة فعل الانكماش . تجابهُه بغريزةِ الدفاع أو الاحتجاج أو ربّما حوار الذات للاستسلام ثم الهرب .. هل تهرب ؟ .. ماءت فزَعاً .. ماءت فذكّرتها الصورة بعريان (كل الملامح الداكنة تذكّرها بعريان .. كل الروائح الزنخة .. الأشياء المتسّخة .. الكلمات الموحلة ؛ وعريان يستلقي الآن على خدرِ قارورة زرعت ثنايا رأسه شوكاً سيجمعه عندما يصحو ليرمي به في وجوه مَن يصادفهم أو الذين خطَّط لملاقاتهم .) .

وجدت نجاة أنَّ عليها بعد كلِّ هذا المخاض المهول الخروج حيث الاشتياق يراكم ذرّاته لمخلوقاتها التي أحبتّها .. عادت إليها لهفةُ اقتناء السلاحف . ستبحث عن سلحفاتِها الفقيدة أو الأحفاد الذين لا بدَّ هُم في الداخل يملأونَ القيعان أو خارجاً يتوسدون برودة رمال الشاطىء ، تاركةً الوليد السفّاح يمارس فعل الصراخ المتواتر ، المتواصل .

برحت الغرفةَ ؛ ثم البيت .. أديمُ الشارع تلقَّفَ الأقدام وصولاً إلى بدءِ النسيج الرملي . جعلت قدميها تطبعان آخر أختام وجودها ، متقدِّمةً شوقاً إلى أمام (كانت مناهي استيقظت تكبّر لله بعد الوضوء متّجهة لفرش سجادة الصلاة تنتهكها قشعريرة الفجر فتجابهها بحك باطن ذراعيها بجانبي صدرها بينما الخمار الأبيض يعمل خيمة تسربل قوامها الذي بدت علائم الانحناء ظاهرة عليه كانعكاس لصنع السنين وقدوم بواكير الشيخوخة) .. كان الانسيابُ الصباحي يشوبه هدوءٌ داكن ؛ تخطّهُ دفعاتٌ ثقيلة لأنسامٍ كدِرة .. لم تشاهد مخلوقاتها الأثيرة فأدركت أنها هنالك ، بانتظارها . سمعت نداءاتها السحرية الغامضة فاستطاعت مسامُعها ترجمة النزوع..

نزلت . احتضنها الماءُ شغفاً .. شرع يعمِّد جسدها ارتفاعاً ،؛ حتّى إذا تجاوز الرأس اكتشفت العالمَ الذي طالما حلُمت بولوج أبوابه . أفردت الذراعين شاعرةً بلوامس ريشيّة تغدق عليها لذاذات غامرة آخذةً بها صوب خلقٍ كوني أثير ..

ومع تكبيرة " الله أكبر " الصادرة من فمِ مناهي الساكب عبارات الخشوع كان النهرُ يقودُ مسارَه المعتاد ، تنعدم فيه رؤيةُ الاشياء الطافية . لم يكن ثمّة طفوّ بائنٌ ، بل انسياب ! .. انسياب فقط باعث على عدم الانتباه أو السؤال . مسارٌ يحدثُ

بتكرارٍ يومي . بيد أنَّ سلاحف الداخل ومخلوقات الاعماق من قواقعٍ وأصدافٍ وأسماكٍ ومخلوقاتٍ هلامية نهضوا لاستقبال مَن أحبّت عالمَهم البعيد بكلِّ جزئياته وتفاصيله وأسرارِه واحاجيه .

ولم تحدس مناهي أنَّ الجسدَ الذي شبِعَ انهاكاً يعود الآن إلى كينونتهِ المرتجاة . كيانٌ يمتلىء حيويةً لصبيّةٍ حلمها العيش تفصيلاً بزعانفٍ طائرة تخترق عُبابَ الأمواه تعبُّ من خضرتها وزرقتها وصفائها عبّاً أبدياً ؛ ونهلاً لا يعرف النضوب أو الانتهاء .

منتصف عام ١٩٩٨

زيد الشهيد

سبت يا ثلاثاء

انها رواية سياسية من الطراز الرفيع. لا شيء هناك سوى السياسة. السياسة بمعناها الاكثر تدميراً. والحب بمدلوله الاكثر تشويها. لن يعثر القارئ في هذا النص المفتوح الدائري الاسلوب. الحلزوني الحركة على (قالت له .. او .. قال لها ..) وانما سوف يتقلب مع هذه اللغة الجهنمية الحارقة الفذة، المبطحة .. المقعرة الجارية كنهر مثقل بحجارة قاعه. واوراق الهزيمة والحصار والحروب المتتالية. حروب العراق. تخفق كورق سقط على صفحته.

اذا اردت ان اقدم توصيفا دقيقا للرواية. اقول انها تشبه فيلم سينمائي مصور بعدسات مختلفة، مقربة ومبعدة، حيث الشعر في صميم اللقطة. حيث المشهد يغني عن السرد.